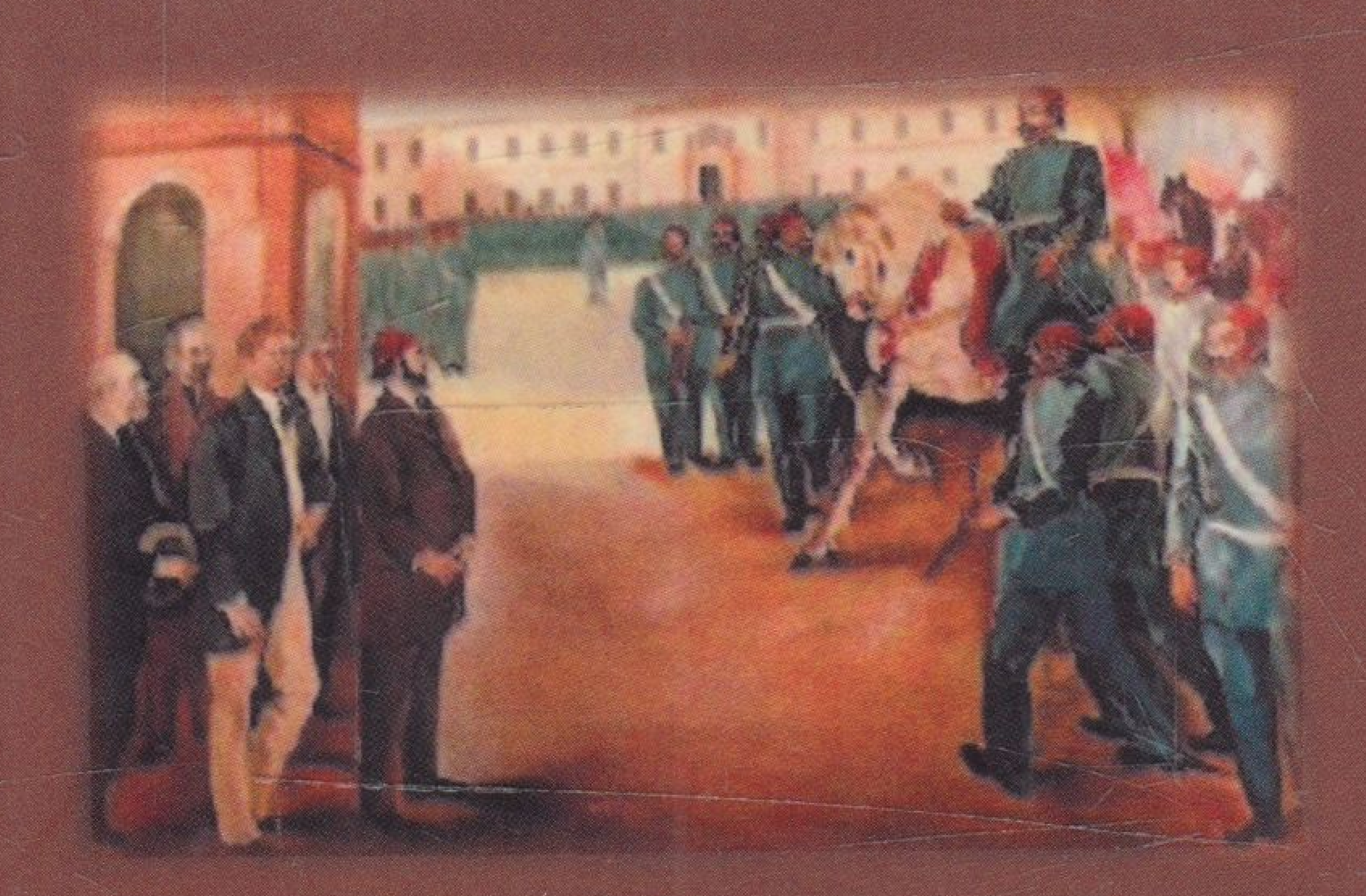
علاء الدين سعد جاويش

خسائر محتملة



رواية



خسائر محتملة



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة في استنهاض وتأكيد الانتماء والوعي القومي العربي، في إطار المشروع الحضاري العربي المستقل.
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافي والعلمي مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

◆◆◆

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

◆◆◆

مركز الحضارة العربية

4 ش العلمين – عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات – القاهرة

تليفاكس: 33448368 (00202)

www.alhdara-alarabia.com

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com

alhdara_alarabia@hotmail.com

علاء الدين سعد جاويش

خسائر محتملة

رواية



الكتاب: خسائر محتملة

الكاتب: علاء الدين سعد جاويش

الناشر: مركز الحضارة العربية

الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠٠٩

الغلاف

تصميم وجرافيك: ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الإلكترونى:

وحدة الحاسوب بالمركز

تنفيذ: إيمان محمد

تصحيح: وفاء عبد الفتاح

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/١٤٢٧٢

الترقيم الدولي: I.S.B.N.978-977-291-977-5

جاويش، علاء الدين سعد.

خسائر محتملة: رواية/ علاء الدين سعد جاويش. - ط١. - الجيزة: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، ٢٠٠٩.

١١٢ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: ٥ - ٩٧٧ - ٢٩١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١ - القصص العربية.

أ - العنوان ٨١٣

الإهداء

إلى عشاق الحرية

علاء الدين سعد جاويش

"أنا وطن وحدي، فمن أراد وطنية فليحيني"

علاء الدين سعد جاويش

الفصل الأول

"أخيرا... لا بد أن أموت، ككل شيء وككل إنسان لابد أن أموت... لكن هل سأموت راقدة؟... لا سأنهض.

وقفت المرأة علي قدميها ومضت بضع خطوات حتى وقفت أمام المرآة، فحلت شعرها ونفشته، وجعلته يتداخل في بعضه البعض، وهي تنظر إلي صدرها الناهد، كأنها معجبة بجماله رغم مرور السنوات عليها وقالت: ما زلت جميلة، ولو أني فتحت بابًا للزواج لتقدم الكثيرون لكن حياتي كئيبة لا أرغبها... سأقتل نفسي الآن، لكن هل سأستطيع؟!

نظرت حواليها، ثم خرجت من الحجرة إلي فناء الدار، واتجهت إلى الخارج وفتحت الباب الخارجي ونادت: حسن... حسن!

جاء شاب تبدو على ملامحه علامات القوة وهو يخطو مسرعًا، حتى وقف بين يديها متأدبًا خاشعًا كأنه في صلاة!

فحملقت فيه ثم قالت: هل أتيت بالعطر لأتعطر؟

فنظر للأرض وهو يدوسها بقدميه الحافيتين وقال: لا..... ليس بعد أفندم!

فصكت أسنانها، وعادت إلى الداخل، وأغلقت الباب في وجهه وهي تقول محتدة: خائن!

وقفت مجددًا أمام المرآة وهي تقول: لم يأت بالعطر، فهل أموت بلا تعطر؟

أطفأت المصباح، وفتحت النافذة فإذا بالدنيا في ظلام دامس، والعواصف تزمجر والرعود تكشر عن أنيابها، فأغلقتها وهي تقول: لعل له عذرًا!

استلقت على سريرها، ألقت برأسها على الوسادة وفردت جسدها، وأخذت تتدثر في الظلام، وعيناها مفتوحتان ثم تحسست جوارها وهي تقول: أيها الرجل أين أنت؟ أين ذهبت وتركتني في الليالي الطويلة، تعال إليّ، فراشي بارد!

وتقلبت على السرير طويلاً، ثم هدأت حتى نامت.

ذهب حسن من فوره إلى بيت الجيران ونادى: عباس، عباس!

ثم وقف ينتظر طويلاً، حتى خرج إليه رجل طويل القامة يرتدي ملابس كثيرة معظمها بالٍ، وهو حافي القدمين بيديه مصباح وقال: ماذا تريد يا حسن؟

مال إليه برقبته وقال: هل عندك كسرة خبز وقليل من الملح؟

دنا منه عباس وهو يقول: لا والله! أليس عند سيدتك شئ تتقوى به؟

تنهد حسن طويلاً ثم أجاب: عندها الحسرات والدمعات!

أخذه بعيدًا عن العواصف وقال له: يا حسن إن سيدتك غنية، غنية جدًا، عندها الخيرات الكثيرة، فكيف لا يكون عندها طعام؟

رفع حسن وجهه وقال: آخذوا كل شيء!

ثم تركه وذهب إلى جيران آخرين، حتى وجد قرب الفجر كسرتي خبز جافتين وقليلاً من الإدام فأكل وهرول إلى سيدته!

وجلس عند الباب القرفصاء، وهو يقول لنفسه: إن سيدتي هذه لا تنام، كلهم طامعون فيما عندها، وأنا..... أنا خادمها الأمين لا أجد ما أقتات به وأسدُّ به رمقي، ويقولون إننا أغنياء!

ظل جالسًا حتى شروق الشمس، وانتظر سيدته تناديه، ولما لم يسمع لها صوتًا، أصاخ بحواسه وهو يدنو من الباب، لعله يسمع

حركة أو دبيبًا، فلم يسمع، نظر إلى السماء فوجد الشمس ما تزال في مخاض إشراقها، فاستبشر ببكوره وقال: لعلها ما زالت نائمة!

قامت من رقدتها إلى النافذة، وفتحتها وهي تجر أثقالها ثم نظرت إلى الشمس وأطالت النظر نحوها، وعادت إلى فراشها وشعرت ببرودة شديدة، فتدثرت، فازداد الإحساس بالبرد. فظنت أن النافذة هي مصدرها، فهمت بإغلاقها لكنها لم تستطع، أغمضت عينيها بعنف حتى نامت، فرأت في منامها كأن البحر قد انشق عن أمواج جاءت تقتلع صخور البر وتغرق البلاد، وأنها تقف لصد هذه الأمواج، فكلما تكسرت موجة جاءت الثانية أعنف منها، حتى كلّت يداها وشلت رجلاها، فتهاوت أمام الموج!

هبت من منامها مذعورة، ووجدت نفسها لا تستطيع النهوض جاهدت فلم تستطع، جاهدت وجاهدت مرارًا لكنها عجزت فصرخت: حسن.

ثم سمعت صوت اقتحام المنزل وهرولة ثم طرقات سريعة متلاحقة على باب غرفتها، فتعالت صرختها مجددًا: حسن!

اقتحم عليها حجرتها ووقف خاشعًا أمام مرقدها، فنظرت إليه وجبينها قد تغير وشعرها انتفش وجسدها توزع على السرير، وهي تقول: ساعدني في الجلوس!

فأجلسها بجهد عظيم وهو يقول: ماذا بكِ يا مولاتي؟

قالت بدمع من عينيها: لعل قدمي قد شلت حركتهما.

فانتبه مذعورا وهو يقول: أستدعي الطبيب؟

فقالت بحسرة: وهل في مصر طبيب؟!

فتلعثم لسانه وقال: طبيب الخديو!

فتمتمت: طبيب الخـ... د... يو؟

تدحرجت الدموع من عيني حسن وهو يرى سيدته تبكي ولا تستطيع الوقوف.

خرج مهرولاً ينادي الجيران، وقف في الشارع يبكي ويصرخ ويولول ويلطم وجهه ويضرب صدره ويصيح: سيدتي... سيدتي... العفريت ضرب رجليها... العفاريت ضربوها...

خرج الناس من بيوتهم ينظرون إليه متعجبين، ويستنطقونه عن الخبر، وهو لا يزال يلطم ويصيح.

دخل بعض الجيران حتى وصلوا إلى مرقدها فوجدوها تبكي! وظلت الدار طوال النهار محشوة بالناس من كل جنس ولون، حتى جاء رجل يوناني زعموا أنه يفهم في الطب، وتفحصها حتى رأى قدميها قد شلتا عن الحركة، فأخذ يتحدث إلى القوم بكلمات هي عربية لكنها ملكونة، فلم يفهموا شيئا.

قالت له المرأة: يا سيدي هل لي من دواء؟! فحملق فيها وقال: نعم، لكنه علاج باهظ تكاليف، تحتاجين ألف جنيه مصري.

فصرخت، ألف جنيه؟ ألف جنيه؟.

قال أحد الجيران: ليس عندها إلا هذا البيت وبضعة أفدنة لا تساوي ألف ريال.

فقال الطبيب اليوناني: أعينوها... العلاج في أوربا!

ثم انصرف فشيعته بنظرة طويلة، وأخذ الناس بعد قذيفته الأخيرة ينسحبون زرافات ووحدانا، حتى لم يبق إلا حسن، فأغلق الباب، وجلس تحت قدميها يرنو إلى الأرض خاشعًا.

قالت: ليس عندي مال يا حسن، هذا اليهودي يريد أرضي وداري ليعالج رجلي، فماذا أفعل؟

قال حسن: طبيب الخديو... ليس هناك إلا طبيب الخديو لن يتقاضى ألف جنيه ولو احتاج الطبيب ألف جنيه، الخديو يدفع، أبوه أخذ أرضك كلها!

ابتسمت وهي تقول بمرارة: أبوه أخذ كل شيء وتركنا في الشلل؟

أخذ حسن يبكي، وهي تنوح حتى الصباح، فلما استفاقت قالت: هل تعرف قصر الخديو!

قال بلسان كلٍّ: نعم يا مولاتي، قصر عالٍ والحراس أمامه يذبون الناس!

فقالت: كيف ستدخل إليه؟

فقال – بريئا -: بقدمي!

فقالت: قد يقطعهما الحراس!

فقال: لن يقطعوهما، فهما لا تساويان شيئًا!

قالت: اذهب إليه!

فوقف كالجبل وأطلق زفيرًا كالقذيفة، ثم خرج يطوي الأرض طيًا، متجهًا إلى قصر الخديو، فوجد العسكر والجند يسرعون في الطرقات، والناس ينظرون إليهم وهم يتحركون بالخطوة العسكرية السريعة، يتقدمهم بعض الضباط، وسمع الناس يقولون: الأميرالاي محمد عبيد يتقدم الجنود إلى نظارة الجهادية!

ووجد الناس يهرعون وراءهم، فشمله هول الموقف، واندس وسط الجموع خلف الجنود في حركاتهم.

وظلوا كذلك حتى وصلوا إلى مبنى حوله العساكر والضباط والشارع أمامه متسع، ويطل على النهر مباشرة، فوجد بعض الضباط يهرعون في داخله، وسمع طشطشة الماء، كأن أحدًا قذف بنفسه في النيل، ثم تعالت الصيحات.

وبعد قليل خرج رجل طويل... عريض المنكبين، يمشي أمام الناس، والجميع يفسح له الطريق وهو يمشي ببطء، تأمل وجهه، فإذا به أسمر اللون جدًا، وينظر للناس نظرة غريبة، كأنه يحلم، أو كأن عينيه لا تطرفان، وثغره مبتسم، حتى جاءت عربة فركبها والجميع ينصتون إليه، وهو يتوجه للضباط والعساكر

تارة، وأخرى للناس: هل تعلمون من أنا؟ أنا أحمد عرابي ابنكم، هل تعلمون أين كنت أنا ورفاقي؟ كانوا يحاكموننا لأننا تقدمنا بمطالب عادلة، وكادوا يقتلوننا لولا رجال محمد عبيد ابنكم!

أيها الجنود ما اسم هذه البلاد؟

فصاحوا جميعا: مصر!

توجه نحو الجموع وقال: أيها الناس ما اسم هذه البلاد؟

فتعالى الصياح: مصر!

قال: ومن نحن؟

قالوا جميعًا: مصريون!

نزل من فوق العربة، مشى بطيئًا كأنه أحد مشايخ البلاد والأعناق تشرئب إليه، حتى وصل إلى الضباط، فأشار إليهم أن يتبعوه، فدخلوا خلفه حتى وصلوا إلى قاعة كبرى، فلماذا دخلوها، قال لهم: أين جند الشراكسة؟

أجاب أحد الضباط المصريين: في السجن بعضهم، والذين ألقوا بأنفسهم في النهر قبضنا عليهم ووضعناهم جميعا في السجن!

فقال: فماذا ترون في هؤلاء؟

فنظروا إلى بعضهم البعض وقال بعضهم: نسجنهم!

فقال عبيد: بل نقتلهم جزاء بغدرهم بكم.

فنظر عرابي إلى عبيد فوجده يتقد حماسة ويغلي غيظًا، فقال موجها الخطاب إليه: دعهم في السجن الآن، وشدد حراساتهم، فإن هموا بالفرار أطلقوا عليهم الأعيرة النارية.

ثم نظر للضابط وقال: يا أحمد عبد الغفار اذهب بفرقة من الجند وقل للألايات جميعا تحضر إلى هنا، ثم اذهب أنت إلى قصر عابدين وأخبر الخديو أننا قادمون إليه عصر اليوم لعرض مطالبنا العادلة.

فخرج الضابط مسرعا، ثم أغلقوا الباب، فقال عرابي: يا عبيد أرسل إلى قناصل الدول جميعا وأخبرهم أننا متوجهون إلى الخديو لعرض مطالبنا العادلة، فلا يجزعوا ولا يقلقوا علي مصالحهم، وشدد التنبيه على قنصل فرنسه وانجلترة العظمي خصوصًا.

فصدع الضابط بأمره وخرج فرحًا.

وجلس عرابي ونظر إلى وجوه رفاقه وقال: الآن يا عبد العال ماذا نصنع؟

فرد عبدا لعال: كما تشاء!

دخل ضابط صغير السن، وهو يقول: الجماهير في الخارج لا تريد أن تتصرف والناس يتزايدون.

فعلا الوجوم الوجوه، إلا عرابي ابتسم طويلا، ونظر إليه مثبتا نظرته على الضابط حتى انزعج الضابط وكرر قوله، فزمجر الضباط، وقال أحدهم: يا علي فهمي أخرج إليهم، واصرفهم!

فقال عرابي محتدًا: لا... بل أخرج إلى الناس وأئت بهم جميعا حتى نخرج بهم إلى الخديو نعرض باسمهم مطالب الأمة العادلة، هؤلاء المصريون، لابد وأن يذهبوا يومًا إلى قصر الحاكم ولو مرة في التاريخ يعرضون عليه مطالبهم العادلة.

فقال أحد الضباط: لكن الخديو لن يستمع إلى أحد، وقد تقع معارك مع حراس قصره وهم كثيرون فيكثر القتلى.

ففكر عرابي قليلاً ثم قال: بل نخرج بهم.

وظلوا يتباحثون في أمورهم ويكتبون مطالب الأمة حتى قال عرابي: من سيتحدث باسم هؤلاء أمام الخديو؟

فعلاهم الصمت كأن علي رؤسهم الطير ثم خرج عبد العال حلمي عن الصمت وقال: ليس في مصر سواك، وإنما جاءت الناس وراءك!

فقال علي فهمي: أنت تزج به إلى النيران! نحن نكتب مطالبنا

العادلة ثم نوقّع عليها ونرسلها للخديو، فيرانا موقعين جميعًا، فيتعطف وينظر فيها.

ونظروا جميعا إلى عرابي فأطرق، وقال بعد هنيهة: بل أتحدث أنا وإذا لم يصدق أنها مطالب الأمة، تتحدثون من خلفي مؤيدين قولي.

قال عبد العال: فإن لم... وأمر بالقبض علينا، وأدخلنا السجن، وحاكمنا، وتفرقت الجماهير سوف...

فقاطعه عرابي صارخًا: لن يستطيع ؛ الأمة معنا والجيش وراءنا، فمن ذا يسلبنا مطالبنا؟

ثم قالّ: أخرجوا انظروا الناس، وتدبروا ولا تخشوا أحدًا بعد اليوم!

فخرج بعضهم وبقى آخرون، فهالهم منظر الجموع التي سدت الطرق وتعالت صيحاتهم: عرابي... عرابي!

أخذ حسن يبحث عن وسيلة يخرج بها من وسط هذه الجموع وكلما ظن أنه نجا إلى الطريق، وجد جموع الناس تترى فتحيل الفراغ سدًا لا يستطيع النفاذ منه، وهو يخشى أن يتغيب، والناس من حوله يتصايحون: عرابي... عرابي! والجند يموجون والشمس في كبد السماء، حتى استطاع أخيرًا أن يخرج إلى الطريق وأخذ يهرول وما زال الناس تستوقفه بين الفينة والفينة، جاءوا ليشاهدوا عرابي.

حتى وصل حسن إلى قصر عابدين، فوجد الجند متربصين والأبواب مغلقة، والجنود في شاغل، فخشى على نفسه التقدم، وظل مترددًا يستحضر منظر سيدته باكية في حاجة إلى طبيب الخديو، لكنه حال أن يرى الجند متأبطين سلاحهم تخور قواه وتخرج مع العرق الذي يكوى جسده.

وهناك سمع صيحات الجند، ورأى جموع الناس يتقدمهم عرابي ورفاقه يمتطون الخيول العربية.

وما أن دنا من بوابة القصر حتى نادوا قائد الحرس، فهرول إليهم بفرقته، فظن حسن أن عرابي سيهدم القصر، ونظر إلى

القصر بعد خروج الحرس – فحسب أنه سجن كبير، وأن عرابي لن يلتفت إليه. ثم دخلوا جميعًا إلى فضاء القصر، فانسي حسن وسط جموع الناس علّه يجد الطبيب.

أُرسل عرابي أحد ضباط الحرس إلى الداخل يُعلم الخديو بمقدمهم وانتظروا قليلاً...

ثم أقبل الخديو وخلفه رجل عظيم الهيئة يبدو متشامخًا فوق شموخ الخديو... ثم نادى الخديو على عرابي... فترجل عرابي عن فرسه، وأسرع إليه وسيفه مشهور بيده، فقال له الخديو آمرًا: أغمد سيفك جندي!

فأغمده عرابي بهدوء والأرض كأنها تتزلزل تحت قدميه!

نظر إليه الخديو بمقتٍ وحقدٍ وقال: ما جاء بك ومعك الجند إلى هنا عرابي؟

فقال وهو ينظر إليه مليًا: جئنا يا مولاي نعرض مطالب الأمة عليكم، وهي مطالب عادلة !

فنظر الخديو إلى الرجل الهائل كأنه يشاوره ثم عاد ينظر إلى عرابي وقال: وما هي مطالب الأمة؟!

فقال عرابي بثبات: عزل ناظر الجهادية عثمان باشا رفقي، وزيادة الجيش العامل إلى ١٨.... جندي، وتعديل القوانين العسكرية لتكفل العدل والمساواة بين رجال الجيش.

امتقع لون الخديو، ونظر إلى الرجل الهائل يستمده القوة ثم قال لعرابي بحدة: هذه المطالب لا حق لكم فيها، وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا، وهذه البلاد قد ورثتها عن أبي وجدي!

فقال عرابي بغيظه مخيف: لسنا عقارًا ولا ديارًا حتى نورث ووالله إنّا لن نستعبد بعد اليوم، لقد مضى زمان أبيك وجدك، فلقد ولدتنا أمهاتنا أحرارًا.

استشاط الخديو، وقال الرجل الهائل: أتعقل ما تقول أيها الجندي؟

- إنكم عبيد مولاكم الخديو!

استشاط عرابي ونظر خلفه إلى الضباط فوجد محمد عبيد يستل سيفه ويتقدم نحوهم، فأشار إليه أن يتوقف فتوقف، ثم قال للخديو: هل ستجيب هذه المطالب أيها الخديو أم لا؟

فنظر الخديو إلى الرجل الهائل وتراطنا قليلاً ثم انسحب الخديو والرجل الهائل خلفه، وتركا عرابي وضباطه، فنادى عرابي سلطان باشا، فجاء على مهلٍ، فضرب عرابي الأرض تحت قدميه وقال له: ادخل للرجل وائت به إلينا.

فدخل ثم عاد بعد قليل وقال: يقول مولانا الخديو إنه سينظر في هذه المطالب ويجيب عليها بعد ذلك.

حنق عرابي ثم نادى علي شعراوي باشا وقال له انصرف بجندك ودع القصر بلا حراسة، ثم التفت إلى عبيد وقال له: دع فرقة من جندك حراسًا هنا، ولا يخرجنَّ منه أحد ولا يدخلنه أحد، إلا بإذن مني، وإذا لم يذعنوا اقتل ثم اقتل، الكبير والصغير، ثم أخرج مسدسه وأطلق منه بعض الأعيرة، وانسحب بضباطه والجماهير تهتف باسمه.

قال الخديو للرجل الهائل: إن عرابي يتمرد علينا، فلاح خسيس كان لازم أقتله!

فقال له الرجل الهائل: كان يستحيل جناب خديو ومعه الجند.

فنظر الخديو إليه وقال: كوكسن، عرابي فلاح لا يجرؤ على النظر إلى وجهي إذا ضربته بالكرباج!

ثم قطع كلامه صوت الطلقات النارية، فأسقط في يده، كان واقفًا فهوى إلى أقرب كرسي فجلس.

انزعج كوكسن جدًا، وخرج ينظر الحدث، فوجد الجموع تنسحب.

وبعد قليل دخل أحد الضباط يقول: أمر القائمقام عرابي ألا يخرج من هنا أحد إلا قتيلاً.

فشتمه الخديو وبصق في وجهه، لكن الضابط تمالك نفسه وأغلق الباب خلفه وأوقف بضعة جنود خلف الباب.

خرج عرابي بالجنود إلى رياض باشا في بيته، فوجد جموع الناس عنده، فيهم العلماء والباشوات والأعيان وبعض الأجانب.

فلما وصل إلى هناك كان قد زحف الليل، فأنيرت الشموع والمصابيح. ثم تعالت الصيحات بين التنديد بعرابي والترحيب به.

حتى دخل إلى مجلس القوم، وجلس ثم نادى أحد الضباط وأسرَّ له قولاً، فخرج الضابط، وقبل أن يعود المجلس إلى سابق عهده، أحاط الجند بالدار ودخل بعض الضباط بأسلحتهم مشهورة فأرهبوا الناس.

حتى وقف الشيخ محمد عبده وقال لعرابي: هل جئت مقتحمًا علينا مجلسنا، كما اقتحمت قصر الخديو يا عرابي بك؟

فرد عرابي قائلاً: بل جئت لأستمع إليكم أعيان مصر ووزراءها ومشايخها وعلماءها.

فرد رياض باشا قائلاً: لكنك هكذا تضع الوطن في خطر، لا نستطيع أن نحيا فيه!

فشملهم جميعًا بنظرته ورنا نحو الجنود ثم قال: "أنا وطن وحدي، فمن أراد وطنيته فليحيني"!

فاندهشوا، ثم قال الشيخ محمد عبده: لكن الملة تدعونا إلى طاعة أولي الأمر، وعدم الخروج عليهم، قولك وعملك اليوم يجعلانك من المفسدين في الأرض.

قال ذلك ثم سكت، وسكت الجميع ينظرون إلى عرابي، فقال عرابي: أنت تلميذ الشيخ جمال الدين الأفغاني، أليس كذلك؟

فقال الشيخ: هو أستاذنا جميعًا، ومحرر عقولنا!

فقال عرابي: فما كان رأيه فيك؟

تحرج الشيخ، فرد رياض باشا: قال عنه الأفغاني يكفي مصر وجود الشيخ محمد عبده فيها!

فنظر عرابي نحوه وقال: القرآن كلام الله فيه الناسخ والمنسوخ وقول جمال الدين هذا عن الشيخ محمد عبده نسخ بقوله إنه مثبط، أيها الناس، إن عهدكم الماضي قد ولى، عهد الخنوع وعهد التبعية، وجاء عهد آخر، فإما أن تسايروه وإما أن تنافقوا.

فقال الشيخ محمد عبده وقد اتقد غيظًا: أيها الجندي، الزم ثغرك، ولا تتعداه، فلا تقعقه ما تقول، فالبلاد يحكمها حاكم شرعي من قبل الدولة السنية، وللمسلمين خليفة فهل ستخرج على هؤلاء وتجر البلاد إلى المهالك؟

فقال عرابي وهو يشهر سيفه: إنك مثبط، الفرنسيون قتلوا بعضهم البعض من أجل الحرية والإخاء والمساواة وكأن هذه المبادئ قد اخترعوها، لكن قرآننا قد حثنا عليها، إنك مثبط لا ترى من الأمور إلا منظرها الكالح القاتم.

فهاج المجلس وتصايح الناس، لكن حركة الجند أرهبتهم حتى أسكتتهم ثم قال عرابي: لقد طلبت من الخديو مطالبًا لا أحسبكم تجهلونها فهل هي عادلة؟

فرد رياض باشا: إنها مهلكة... هذه المطالب مهلكة..

هل تريد أن تغير الوزير، ومن يحل محله؟

فقال عرابي: يا باشا، هل عقمت مصر بعد أن أنجبت ثمانية وزراء؟

فقال رياض باشا: ماذا تريد؟

رد عرابي وهو شاهر سيفه: الحرية والعدل اليوم، أما غدًا فهو في شأن آخر

ثم قام من المجلس متجهًا إلى بيته يتبعه الجند.

دخل حسن إلى سيدته فوجدها غارقة في دموعها حتى ابتلت ملابسها من كثرتها، واحمرت عيناها، وهي تبكي وتنوح آهٍ آهٍ.. أهٍ.. آهٍ... واحرقتاه!... واويلتاه، واويلتااه واأسفاه!... آه... شلت قدماي... شلت قدماي... فأخذ ينزف دمعًا سخينًا وكبده يتقطع لهذا المرأى، ثم سعل وتنحنح حتى فطنت إليه، فأخذت تلملم بكاءها، وتجمع دموعها أو تستردها إلى الأحداق، وهي تقول له غير ناظرة إليه: هل قابلت الطبيب يا حسن؟

فوقف أمامها ثم جثا على ركبتيه خاشعًا، ينظر للأرض أمامها

ويقول: لقد حدث اليوم عجب عجيب يا سيدتي!

فانذهلت عيناها، ثم أشارت إليه فقال مستطردًا بخشوعه: جئت الناس اليوم، خرجوا خلف فلاح اسمه أحمد عرابي إلى قصر جناب الخديو يطلبون تغيير الوزارة و...

فقالت المرأة: من هو أحمد عرابي يا حسن؟.....

قال: كيف يا سيدتي؟

قالت: ما هي صفاته، وهل هو باشا أم من الأعيان؟

قال مندفعًا: يقول الناس هو جندي كان نفرًا ثم ترقى في عهد الوالي سعيد باشا ثم ذهب اليوم مع الناس والجند للخديو!

فقالت بتركيز: وهل أطاعه الجند؟!

فقال منشرحًا: كأن لا عقول لهم!

أخذت تنظر إليه تتفرس فيه، ثم نظرت للنافذة فوجدتها تؤذن بمغيب الشمس، فقالت: دخل الليل يا حسن!

فقام مسرعًا ثم عاد بشمعة، فقالت له: ماذا فعل الخديو بعرابي والجنود هل قتلهم؟

فقال وهو يعود إليها: لم يستطع، بل كاد الضابط محمد عبيد

يقتل الخديو لولا منعه عرابي!

ففغرت فاها، واتسع ما بين حاجبيها وقالت: هل حدث هذا حقًا؟

فقال: نعم يا سيدتي.. رأيته أمام عيني!

فقالت: ويلٌ لهذا الجندي!

فقال: الخديو لم يره، وإلا لسجنه أو لقتله، لكن عرابي لازم يحاكمه!

فابتسرت ابتسامة وقالت: وويلٌ لعرابي ما زال فلاحًا ومعه الجنود والناس!

ثم سكتت لحظة وهي تنظر إلى حسن طويلاً ثم قال: لم أستطع أن أحضر لك يا مولاتي طبيب الخديو، فالجند بعد ذهاب عرابي أغلقوا القصر، وقلت لأحد الحراس الجدد أريد الطبيب لعلاج سيدتي ؛ فقال لي: ابحث لها عن طبيب غيره، فقلت له: رجلاها قد شلتا ولا تستطيع المشي عليهما ونحتاج طبيب الخديو!

فهز كتفيه وقال لي: الخديو عنده طبيب فرنسي، ومولاتك مصرية، فارقب لها طبيبًا مصريًا.

فقلت للحارس يا سيدتي: وهل في مصر طبيب يعالج شللها؟

فقال: عرابي، عرابي بك أمرهم ألا يخرج من القصر أحد أبدًا إلا بإذن منه.

فظللت أتنقل من حارس إلى حارس والضباط قالوا: لا نُخرج أحدًا إلا بإذن عرابي باشا، ثم تركتهم وبحثت عنه فلم أجده فعدت إليك.

فقالت: وهل سأظل مشلولة حتى يأذن عرابي؟!

فقال بوجوم شديد: هذا ما قاله الحراس!

فقالت غاضبة: بل هذا ما قاله عرابي وما أراده، أراد أن يكون كل شيء، فلن يصبح أي شيء!

جهِّز لنا طعام العشاء يا حسن إني جائعة!

خرج صادعًا بأمرها، وأخذ يفتش عن الطعام في مظانه، فلم يجد شيئًا، فخرج إلى الجيران يلوذ بهم، فلما نادى عباسًا، خرج إليه رجل طويل القامة، وافر الهامة، أسود كله، يرتدي ملابس سوداء، معه لفافة كبيرة، ناولها لحسن دون أن يتحدث إليه، فأخذها منه وعاد إلى المنزل فوجد سيدته قد نامت.

فخشع عندها وهو يقول: سيدتي... سيدتي... عدت إليك بالطعام، هل تنامين بلا عشاء؟

ثم انتظر قليلاً حتى قالت له: أنهضني يا حسن، هل تستطيع؟

ساعدها حتى نهضت مجهدة، فأتى لها بالطعام كما جاء به في لفافته! فقالت له: لفه لك في القماش؟

قال: كنتِ غير ثقيلة، فما أثقل وزنكِ اليوم!

قالت: الظلمات يا حسن، والظلام الذي جعلني مشلولة يجعلني مكبلة، أعلم أنك تتعب في خدمتي، لكن عليك بالصبر دون الجزع!

فقال وهو يعطيها رغيفًا: أنا عبد إحساناتك يا سيدتي، وعما قريب ستشفي رجلاكِ، وتمرحين وسط حقول مولاي!

همت تتحدث ثم كظمت الحديث وتركته يقول: في الصباح.

سأذهب إلى قصر الخديو وأطلب منه أن يأمر الطبيب أن يعالج قدميكِ!

قالت مبتسرة ابتسامة: وهل سيأذن له عرابي؟ إنه فلاح لا يفقه مصابي!

فقال مسرعًا: الخديو سيأمره، وإن لم يرضخ لأمر الخديو فالسلطان يسجنه، المهم أنك ستكونين بخير.

مسحت يديها بعد أن أنهت طعامها، وأخذ حسن ينظف لها

المكان ثم قام بعيدًا وتركها.

التمس ركنا انزوى فيه، واضطجع على جنبه الأيمن وأخذ يقول لنفسه: لابد أن عرابي لا يعرف أن مولاتي مريضة، ولو عرف لقبض على الأطباء وجاء بهم إلى هنا، إن سيدتي لابد أن تعالج، وتعود إليها صحتها، لو... سوف تقوم القيامة!

لا أصبر حتى الصباح، سأذهب الآن لقصر الخديو، نعم الجند نائمون، والطبيب عندما يعلم بما نريده سيأتي معي لسيدتي، هم لا يعرفون سيدتي ولو عرفوها حقًا لجاءوها جميعًا يعالجونها. لكنهم حمقي، هل يجهل أحد من الناس سيدتي، السيدة الغنية الجميلة.

إن جيراننا كلاب يقدمون لنا المساعدات، لكنهم طامعون في أرضها وناظر أرضها يأكلها ودومًا يقول: إنها مديونة ويسدد الديون... لا... لن أنام سأقوم للقصر، ثم همَّ من مكانه وبينما أخذ يخطو خطواته للخارج، سمعها تناديه.

هرول إليها ووقف خاشعًا فقالت: في الصباح تذهب إلى عرابي تطلب إليه أن يأذن بخروج الطبيب من القصر!

فوقف متصلبًا لا يبدي حراكا.

فعادت تقول: هل فهمت يا حسن؟

فلم ينبس بكلمة، فأعادت عليه قولها وقالت: مالك لا تتكلم؟

فقال متأدبًا: وددت أن أذهب للخديو نفسه يأمر الطبيب بعلاجك!

فقالت بحدة: في الصباح ابحث عن عرابي وائت به أو اجعله يأمر الطبيب، ودعك من الخديو هذا.

فوقف ولم يتحدث فقالت: اذهب ونم الآن. خرج بهدوء وانزوى في ركنه الأول حتى نام، بعد أن ظنها قد نامت.

الفصل الثاني

وقف أمام البيت ورأى الأشجار تحيط به، ولا يقف عنده حراس، فبدا مشدوهًا وخشى من الفشل، ثم تقدم بخطوات مرتعشة نحو الأبواب، وأخذ يدقها حتى أجابه خادم طويل أسود فقال حسن: هل عرابي باشا موجود؟

ضحك الرجل ساخرًا، ثم خرج إلى حسن وقال: لا... عرابي باشا ليس هنا، أرسله الخديو وجنوده إلى الصحراء.

قال حسن! لِمَ؟

قهقه الرجل وقال: ليحفظ الأمن هناك!

قال حسن: وهل في الصحراء خطر، بل الخطر هنا في العمران!

قال الرجل: وماذا تريد أنت من عرابي باشا؟

قال حسن هازئًا: أريده أن يأمر الخديو بإرسال الطبيب لعلاج سيدتي، شلت قدماها، وليس في مصر طبيب يعالجها.

فقال الرجل ضاحكًا: وهل سيعالجها عرابي باشا، عرابي باشا رجل عسكر، لا يعالج الناس.

فعاد حسن يقول: وهل قلت لك إن عرابي باشا طبيب، بل يأمر الطبيب أن يعالجها.

فقال الرجل ناهرًا: اذهب يا رجل.

فخرج حسن مسرعًا، وقد صمم على الذهاب إلى قصر الخديو، فلما وصل إليه وجد الحراس قد تغيروا فاستبشر خيرًا.

دنا من إحدى البوابات وأخذ يسأل الحارس قائلاً: أريد مقابلة جناب خديو عظيم!

فنظر إليه الحارس مستفهمًا، فعاد حسن يتلو عليه مطلبه من جديد.

فحدّثه الحارس بلغة غير العربية، فلم يفهم حسن شيئًا، فنهره الحارس، وقال حسن: إنكم لا تفهمون ما نقول، فلم تأتون إلينا؟

وظل يطوف بالبوابات حتى وصل إلى بوابة صغيرة عليها حارس مصري فقال له: أريد مقابلة الخديو!

فنهره وسبه وضربه بالحذاء ضربًا مبرحًا وهو يقول له: تريدون مقابلة الخديو، هل تظنون أنه فلاح، تتحدثون إليه؟

ابتعد قبل أن أقبض عليك، وأجلدك فلاح غبي.

مضي حسن بعيدًا وهو يجر آلامه ويعالج جروحه، حتى ظن أنه ابتعد عن مرمى أبصار الحراس، فجلس حتى هدأ وأخذ يفكر في حاله، وكيف يلقى عرابي.

مرت به امرأة تحمل طفلاً صغيرًا فوجدت الدماء تتناثر من جروحه، فتأملته ووقفت عنده، ومالت لتساعده، وأخذت تضمد له الجراح.

ولما انتهت نظر إليها مليًا وقال: أين أجد عرابي باشا؟

فابتسمت وقالت: هل الذين ضربوك وأوجعوك من جند عرابي؟

فقال: كلا... إنهم من حرس الخديو أفندم!

فقالت: ولماذا تريد عرابي؟

فقال مسرعًا: سيدتي مشلولة، نريده أن يأمر الطبيب بعلاجها!

فقالت المرأة وهي تحمل طفلها: عرابي مهموم وليس عنده وقت لهذه التوافه.

غضب وبان على أسارير وجهه الغضب وقال وهو ينهض: كيف تقولين ذلك؟ مرض سيدتي خطير ولابد من طبيب الخديو حالاً.

فهزت المرأة رأسها وقالت: ابحث عنه في النظارة.

فانبسطت أساريره، وهرول نحو النظارة، فوجد حوذيًا فقال له حسن: هل توصلني إلى نظارة الجهادية ولك في الجنة قصر أيها الحوذي؟

غضب الحوذي وقال: الجنة فيها قصور على كل شكل ولون، هل معك عشاء لأولادي؟

فنهره حسن ومضى يجر نفسه إلى نظارة الجهادية، فلقى حوذيًا آخر يتشاجر مع أجنبي، فوقف يستمع إلى شجارهما ريثما يستريح فسمع الحوذي يقول: كل هذه المسافة الطويلة، وتدفع قرشين صاغًا فقط، هذا ظلم؟

فقال الأجنبي بلكنة: احمد ربنا، روح المحاكم!

فقال الحوذي: محاكم؟ والقاضي من بلدكم؟ والقانون من عندكم؟ الله يخرب بيتكم!

ثم أخذ الرجل حماره، ومضى الأجنبي يبتسم ظافرًا، فتحامل حسن على نفسه ومضى إلى نظارة الجهادية، فوجد سيارة مسرعة تكاد تضر به لولا أن تفاداه سائقها، ولكنه وقع على الأرض من شدة تأثره وضعفه، فهرول الناس نحوه وهم يتصايحون: هؤلاء هم الأجانب المرابين الذين يدفعون للخديو القروض بالفوائد يدوسون الناس، ولا يستطيع أحد أن يقول لهم شيئًا.

سأله أحد الوقوف: إلى أين يا مسكين؟

قال بإجهاد: إلى نظارة الجهادية، أريد عرابي باشا يعالج سيدتي، من الشلل.

فقال أحد الوقوف: وقل له يحاسب لنا هذا المرابي أيضًا، وينزل الديون من فوق كاهل الناس!

وكان الحوذي قد هرول نحو حسن فلما سمع ذلك قال له: قل

له يقتص من الأجانب، ويجعل لنا محاكمًا غير المختلطة، حتى نستطيع أن نتظلم من ظلم الأجنبي لنا.

فنهض حسن وقال لنفسه: ما بالهم يحملونني مطالب كثيرةً، لِمَ لا يأتون معي إلى عرابي باشا يعرضون مطالبهم العادلة...

لكن لا... ربما يشغلونه بهذه الأشياء عن سيدتي.

فقال لهم: نعم... نعم، لكن هل تكتبون هذه المطالب حتى أقدمها له؟

فنظروا حولهم جميعًا ثم قالوا: لا نقرأ ولا نكتب، لكننا نتكلم فتكلم أنت عنا.

فقال حسن: لا تقرأون ولا تكتبون أبدًا؟ حسنًا!

فقال الحوذي: هل أوصلك حتى لا تنسي مطلب؟

فقال حسن: لا... بل ابحث عن زبون لعشاء أولادك.

فقال بعض الوقوف: بل ندفع له الثمن علي آلا تنسانا عند عرابي باشا!

وهمّ بعضهم بإخراج بعض النقود، لكن الحوذي قال لهم ناهرًا إياهم: تكون امرأتي طالقًا ثلاثا لو أخذت مليمًا واحدًا، اركب!

فركب حسن وهرول به الحوذي حتى وصلا إلى نظارة الجهادية، فلما رأى الحوذي الحراس من بعيد توقف، وقال لحسن: انزل أنت واذهب، معاك الله، ولا تنس مطلبي!

فقال حسن: ألا تأتي معي، لقد قلتم إنكم لا تقرأون ولا تكتبون، بل تتكلمون، فتعال وتكلم إليهم!

فنظر الحوذي أسفل منه بخزي وقال: لا... البركة في حضرتك أفندم!

ترجل حسن بهدوء وأخذ ينظر للرجل تارة وأخرى للنظارة، وما

أن ابتعد قليلاً حتى تملكه الخوف، ووجد الجند في هرج ومرج فقال لأحدهم: أريد عرابي باشا!

فحملق فيه الجندي وقال: لماذا تريده؟

قال مندفعًا: ليعالج سيدتي من الشلل!

قال الجندي غير مكترث: ابحث عنه في الداخل!

مضى حسن قليلاً فاستوقفه أحد الضباط وقال له: إلى أين تريد أيها الرجل؟

قال: أريد عرابي باشا؟

قال الضابط: عرابي باشا مع محمود باشا البارودي ناظر الجهادية، فهل تريده أن يخرج لك ويترك الناظر وحده؟ خسيس!

فتهيب حسن وقال: لكن سيدتي مريضة وتحتاجه.

فنهره الضابط، فأخذ يصيح بأعلى صوته: عرابي باشا... عرابي باشا... سيدتي مشلولة وتريد طبيبًا!

فأخذه الضابط بعيدًا وهو يركله ويضربه، فخرج حسن مسرعًا خوفًا من شدة العواقب.

مضى بعيدًا يبكي، فلاقاه الحوذي فقال له: هل قلت لعرابي باشا كل شيء بهذه السرعة؟ وماذا قال لك؟ أجابك؟ هل سيهدم المحاكم المختلطة؟ ويبني محاكم مصرية تقضي بالعدل والإنصاف، عرابي يريد العدل.

فقال حسن: لم أجده، كان مع البارودي باشا ناظر الجهادية وقد طردني الضابط بعيدًا.

فقال الحوذي: لم تستطع فعل شيء؟

قال حسن: ماذا أفعل وسيدتي تحتاج طبيبًا، والطبيب عند الخديو والخديو حبسه عرابي، ولا أستطيع لقاء عرابي؟

فقال الحوذي: اسمع يا رجل، تعال معي إلى عبد الله النديم!

فقال حسن مندهشًا: عبد الله النديم!

فقال الحوذي: نعم... يكتب هذه القضايا العادلة في مجلته.

قال: وهل له مجلة.

قال الحوذي: بعض الأفندية أسمعهم يقولون هذا الكلام، وعرابي باشا يقرأ مجلته!

فقال حسن: لكنني لا أقرأها!

فسأله الحوذي: وهل تعلمت في المدارس أو الأزهر؟

قال حسن: لا..!

قال الحوذي: فكيف تقرأ وأنت لم تتعلم؟

قال حسن: أنا جاهل لا أعرف القراءة والكتابة، فأنا خادم سيدتي المشلولة فحسب!

فقال: وهل ينفعها جهلك هذا، هيا بنا أنا أعرف مكان عبد الله النديم!

فهمّ حسن بالركوب فوق الحمار، لكن الحوذي نهره وقال له: لا تركب الحمار، دعه يستريح، كنت أحسبك تقرأ، فلا يركب حمار حمارًا!

فمشيا أمام الحمار، وقال حسن للحوذي: هل أنت تركب الحمار؟

قال: لا... لا أركبه أبدًا!

فقال حسن: وهل النديم بعيد؟ ما هي مجلته؟

قال: الضحك والنكد والبكاء.

فاستغرب حسن الكلام، لكنه لزم الصمت وهو يفكر قائلاً: لا سبيل إلا في البكاء هذه الأيام، أخاف على سيدتي أن تعمى عيناها من البكاء على الشلل فيستحيل علاجها.

ظلا يسيران في الشوارع الكبرى الجديدة، واجتازا مسافات بعيدة، حتى وصلا إلى منزل قديم، وقف الحوذي عنده وقال: انتبه للحمار حتى أعود.

وبعد لحظات عاد، وأوقف الحمار بعيدًا وأخذ بيد حسن ودخلا فوجدا عدة رجال يعملون، ورجلاً يرتدي الجلباب والطاقية وعليه عباءة ويجلس على الكرسي وأمامه مكتب يكتب عليه، فقال الحوذي: يا عبد الله أفندي، هذا الرجل يريدك!

وأشار بيده إلى حسن، فلم يرفع النديم عينيه عن الورقة وقال له: ماذا يريد.

فتهيب حسن ثم قال: أريد عرابي باشا يعالج سيدتي المشلولة.

فقال النديم وهو يكتب: عرابي جندي عظيم وليس طبيبًا.

فقال حسن: يأمر طبيب الخديو ليعالج سيدتي إن مرضها خطير.

فقال النديم: طبيب الخديو؟ لو شاء الخديو لقتل المصريين جميعًا، فهو يكرههم، لكن عرابي لا يستطيع أن يأمره.

فقال حسن: لكن حرس قصر مولانا الخديو قالوا لي إنهم لا يُخرجون أحدًا إلا بإذن عرابي باشا.

فقال النديم: ما هو مرض سيدتك التي تحتاج طبيب الخديو؟

فقال حسن مندفعًا: إنها مشلولة.

فابتسم النديم وقد رفع بصره إلى حسن وقال: مصر كلها مشلولة فماذا يفعل لها عرابي باشا؟

قال حسن: سيدتي لو ماتت تقوم القيامة.

فضحك النديم ثم قال: حسنًا أعطني عنوانها، وسأرسل إليها طبيبًا من عندنا.

قال حسن: لا يصلح إلا طبيب الخديو نفسه يأمر به عرابي باشا!

فقال النديم ضجرًا: سيرسل عرابي طبيبًا لكن أعطني العنوان.

قال حسن: درب الجماميز، الحارة الأخيرة، سيدتي اسمها "كنانة"

فابتسم النديم وقال: لو ماتت الكنانة تقوم القيامة، لكنها لن تموت أبدًا طالما عندنا رجال مثل عرابي باشا، أخرج أنت وانتظر حتى يرسل عرابي باشا بالطبيب.

فخرجا وهمّ الحوذي أن يتفوه بشيء، لكنه وجد النديم قد مزق الورقة التي كان يكتبها، وجاء بورقة أخرى ودواة وقلم وأخذ يقول لنفسه وهو يكتب: إلى حضرة جناب عرابي باشا، إن الكنانة مشلولة، فأرسل لها طبيبًا حتى تستطيع حمل السهام لترمي بها الأعداء، وإلا ستُضرب أنت ضربًا لا شفاء بعده، والكنانة امرأة شلت قدماها وليس لها طبيب سواك في أرض الكنانة، تسكن درب الجماميز الحارة الأخيرة.

ثم قطب حاجبيه، وابتسم بسخرية وقال: والله لو ماتت الكنانة لقامت القيامة، لكن الكنانة لن تموت، وإن هي ماتت سنحييها.

فقال حسن مندفعًا: كيف تحيون الموتى، ولا تستطيعون شفاء شللها حتى اليوم؟ أخشى عليها العمى من فرط بكائها!

فقال النديم: سأكتب إلى عرابي باشا في التبكيت والتنكيت لكنني سأرسل إليه لتذهب إليه ليراها ويعالجها.

فقال حسن بتحسر: يا سيدي كيف تذهب إليه وهي مشلولة؟ بل يذهب إليها هو.

فقال النديم غاضبًا: هل جننت؟ إن عرابي باشا مشغول عن سيدتك هذه كثيرًا.

فقال حسن بضيق: لكنها الكنانة ولو ماتت والله ستقوم القيامة!

ثم أخذ الحوذي وخرجا وهو يود لو يحدث النديم عن مطالبه، لكنه وجد وجه النديم شديد التغير، فخشي مغبة ذلك، ومضى حسن.

قال حسن: يقول الرجل إن عرابي باشا مشغول عن مولاتي، ماذا أقول لها اليوم؟

فنظر إليه الحوذي وهو يتجه نحو حماره وقال: هل سيدتك غنية يا رجل؟ قال: أغنى جيرانها، وما أكثر خيراتها، إنها كثيرة كثيرة، لكنهم عندما شلت سيدتي ينهبون خيراتها، ولا يعالجونها.

فقال الحوذي: لا تخف، عرابي باشا سوف يعالجها، لكن لو قامت ستطردك، إن مصلحتك أن تظل مشلولة حتى تحتاج إليك يا غبي.

فتذمر حسن وقال: كلا... إنها لا تطردني، بل تنتقم من الذين ينهبون خيراتها وينكرون، فستطردهم جميعًا من أرضها.

فقال الحوذي: وتصبح أنت سيد هذه الخيرات.

قال حسن: لقد كلّت قدماي وبح صوتي لتشفى سيدتي، فإن شفيت ستعوضني خيرًا كثيرًا.

وبينما هما كذلك سمعا أصوات الخيل تصهل صهيلاً مدويًا، ثم لمحا الجند يهرعون وكأنه موكب الخديو أو أحد النظار.

فهرولا ناحيته، ووقفا ينظران مع الناس حتى وصلا إلى نظارة الجهادية، فأبعد الجنود الناس، فقال بعضهم: ما بال الجند يبعدوننا اليوم والمرة الماضية كانوا يحثوننا على التجمع؟

فقال آخر: هذا هو راتب باشا جاء من قبل السلطان العثماني، جاء يهدم البلاد علينا جميعًا والجنود يخافون منه علينا.

نزل راتب باشا من العربة وهو ينظر للناس منتفخًا وكرشه أمامه والسوط بيديه يذب به الناس، وأنفه تتطاول حتى تكاد تصل إلى السماء، وهو يدخل إلى النظارة والبارودي وعرابي والضباط في استقباله، فألقى عليهم السلام، فردوه، ومضوا جميعًا للداخل، ودخلوا مكتب الناظر، فجلسوا جميعًا وقال راتب باشا: عرابي يثير فتنًا، يفعل اضطرابات بالجنود، يخرج على الخديو بالعصيان،

عرابي أنت عاصٍ.

فالتفت الضباط إلى بعضهم البعض، وقال البارودي: حضرة الباشا، عرابي هو لسان الأمة المصرية، يطلب من الخديو تحقيق العدالة، عرابي ليس عاصيًا.

فنظر إليهم بسخرية وقال: الجند جعلوا من عرابي زعيمًا يطالب بالخروج على الخديو والمروق عن السلطان، عرابي لا يتحدث باسم الأمة المصرية، لكن باسم الضباط، عرابي أناني، يريد ترقيات حفاوات، تكريمات يريد أموالاً، يريد جاهًا، يريد سلطانًا، لكن جناب خديو تعطف على مطالب جنده، سياسته رشيدة.

فقال عرابي متحمسًا: كلا راتب باشا، المصريون ليسوا أنانيين لا يريدون سلطانًا ولا تكريمات ولو كانوا يريدون ذلك، ما جعل عمر مكرم محمد علي باشا واليًا على مصر، بل كان اعتلى هو السلطة.

فزمجر راتب باشا وقال: مصريون لا يحكمون، مصريون جهلة لا يفهمون حكم البلاد، مصريون فلاحون يزرعون يحصدون، لكن لا يحكمون ولو كانت عندهم الجرأة لتقدموا لحكم البلاد منذ مئات السنين.

فاستشاط عرابي باشا وقال: المصريون ليسوا جهلة، بل أنتم الذين جعلتموهم جهلاء، مصر بها الأزهر منارة الدين، مصر بها حضارة آلاف السنين، مصر بلد عظيم، لكن سلطان عثماني يريد تحقير المصريين.

فالتفت راتب باشا إلى بقية الضباط وقال: أنا... أدعوكم لترك عرابي وحده يواجه مصيرًا مشئومًا، إذا استمر في عصيان الخديو.

فضرب الجند الأرض بأقدامهم وقال محمد عبيد: عرابي باشا صوت مصر، ونحن سواعدها، وإن كان ما يفعله عندكم يسمى عصيانًا، فنعم به من عصيان.

فوقف راتب باشا وقال: أريد عرابي جلسة انفراد!

فقال البارودي: يمكن للباشا أن يتحدث أمام جميع الضباط.

فصمت الباشا قليلاً، فهمّ البارودي بالخروج وتبعه بقية الجند والضباط، فجلس عرابي أمام الباشا وقال: نحن لسنا عصاة، بل نحن نسطر التاريخ، ونطالب بالعدالة التي جاء الدين يقيمها.

فقال الباشا: عرابي... أنت تثير قلاقل... جناب سلطان عثماني يعلم أن توفيقًا هذا ضعيف شخصية، أمه جارية، لا يعلم كيف يتصرف الرجال، جناب عرابي باشا السلطان يريدك أن تقتل توفيقاً وتطالب بحكم مصر، ولن يرفض السلطان.

فتجهم وجه عرابي باشا وقال: أنا لا أقتل مسلمًا بغير حق، ولا أرب لي في حكم مصر.

فقال الباشا: أنت ضابط، علموك في الجندية القتل، وتوفيق مفسد في الأرض، جناب سلطان، يريد إنهاء أسرة علوية من مصر نهائيًا، واضطرابات أمن في مصر لن يسيطر عليها غيرك.

فوقف عرابي باشا مندهشًا ولم يبد حراكًا، فتفرسه راتب باشا طويلاً، فرآه يشمخ برقبته دون همس، فقام وخرج.

دخل البارودي وعبيد وعبد العال حلمي وعلي فهمي على عرابي، فقال علي فهمي: ماذا كان يريد منك؟

فتبسم عرابي باشا وهو يجلس وقال: يريد منى أن أعزل الخديو.

فتحمس البارودي وقال: هذا رأي صائب، فتوفيق لا يستطيع حكم مصر.

فتورد وجه محمد عبيد وقال: بل اقتلوه، وإن لم تجدوا له قاتلاً فأنا زعيم بقتله، وإن تفاقم بكم الأمر اقتلوني به، نذرت روحي لقتله.

فزمجر عرابي باشا وقال: لا نعزل ولا نقتل، الأيام القادمة سترينا.

فقال عبد العال حلمي: شريف باشا قبل الوزارة بشرط إبعاد الجيش عن السياسة، وتريدون اليوم عزل الخديو وقتله، وقد تعهد الأعيان والعلماء ووجهاء القطر بعدم تدخل الجيش في السياسة كيف ذلك؟

فقال عرابي باشا: ولكننا اشترطنا كي يبتعد الجيش عن السياسة أن يعود مجلس النواب مرة أخرى بانتخابات حرة.

دخل أحد الضباط إلى المجلس وقال للجميع: شريف باشا رئيس النظار يريد حضرة البارودي باشا ناظر الجهادية في أمر عاجل.

ففارق البارودي باشا المجلس على الفور وتوجه إلى رئيس النظار، وجده كمرجل يغلي وقد ارتسمت كافة علامات الضيق علي وجهه، ولما أن رأى البارودي قال له: بارودي كيف يمكن لمصر أن تطمئن وعرابي يثير شغبًا عظيمًا؟

فقال البارودي: دولة شريف باشا عرابي لا يثير شغبًا، لكن الشعب يلتف وراءه، عرابي يريد أن يحقق عدالة.

فقال شريف باشا وهو يتميز غيظًا: عرابي يريد أن يكون زعيمًا، يريد مناصب عليا، أنا آمر عرابي أن يذهب بالآلاي إلى رأس الوادي فورًا.

فهمّ البارودي بالحديث، فنهره شريف باشا قائلاً: الجنود يبتعدون عن السياسة، بارودي باشا نفذ تعليمات.

فخرج البارودي من مجلسه، وأرسل لعرابي بهذا النبأ، فتجهز للرحيل.

قامت القاهرة كلها تتقدم موكب عرابي إلى السكة الحديد وهو يغادر القاهرة، فوقف فيهم خطيبا يقول لهم " الحمد لله أيها المصريون أن منَّ علينا جناب الخديو بالموافقة على عودة مجلس النواب للانعقاد، حتى تسود العدالة والديمقراطية في مصر،

فالخديو لا يدخر وسعًا في إسعادنا والجنود سيحافظون على الأمن، والأيام القادمة خير من الأيام السالفة.

أخذت الجماهير تهتف له، حتى مضى القطار بعيدًا، وخرج عرابي باشا من القاهرة، وكلما توقف القطار في محطة من المحطات وجد الناس والأعيان والعمد والمشايخ يخرجون لاستقباله وتهنئته، وقال له أحد الأعيان: إن مصر لم يعد ينقصها إلا أن يتولى حكمها مصري عظيم، مثل عرابي باشا.

فتجهم وجه عرابي باشا وقال: إن الخليفة العثماني قد أناب عنه لحكمنا جناب الخديو توفيق، ولكن خيرات مصر ستصير لمصر، أيها المصريون إنما قام الجند بما قاموا به ليعيدوا مصر للمصريين.

ثم وقف عاليًا شامخًا ورفع صوته هاتفًا: نعم نريد مصر للمصريين لا للأتراك ولا للشراكة والأرناؤوط ولا للأوربيين المرابين الناهبين خيرنا كله، مصر للمصريين.

فصاح الناس وهاجوا جميعًا وهم يقولون: عرابي، عرابي – عرابي يحيا عرابي..

فقام عرابي باشا مرة أخرى وقال: بل قولوا مصر، مصر، تحيا مصر شامخة.

فتقدم رجل وافر الهامة، عظيم القامة، وقال بصوت جَهْوَرِيّ: مصر شامخة بتاريخها وأهراماتها.

فقال رجل آخر: بل مصر شامخة بأولادها وإن كانت شامخة بصنع الأجداد أيضًا.

وظل عرابي باشا يتنقل من بلد إلى بلد حتى وصل إلى آلايه برأس الوادي.

دخل السردار على الخديو في قصره وقال له بوجه عبوس: أفندينا ولي النعم المعظم!

فتجهم توفيق من منظره وقال له: ماذا عندكم من جديد باشا؟

فقال الرجل بحزن: الجماهير تهتف باسم عرابي في كل أرجاء القطر.

فوقف الخديو مذعورًا وقال: مصريون جهلاء، حمقي سأسيمهم الخسف والخزي، أنا سأذل المصريين، وسأقتل هؤلاء الجند الذين يسلبونني سلطاني الذي ورثته عن آبائي وأجدادي.

فشاركه الباشا قائلاً: العامة تحركهم الشعارات، فلابد للخديو أن يتقرب منهم قليلاً، كما تقرب بونابرته في بداية احتلال الفرنسيس لمصر باسم الدين.

فتأوه الخديو وقال: صدقت يا باشا صدقت، سألقي خطبة افتتاح المجلس بنفسي، أعدوا الموكب، واجعلوا الناس يتوافدون ليروا فخامتنا.

فنظر الباشا للأرض ثم رفع عينيه إلى الخديو وقال: جناب خديو لا تزيل الحجاب مباشرة عن العامة، حتى لا تزول هيبتكم من قلوبهم فيتجرءوا.

دخل الرجل العظيم الهامة وهو يسمع قول الباشا فلما رآه الخديو هرول نحوه وقال له: جئت في موعدك تمامًا جناب قنصل دولة إنجلترا العظمى، مصريون يهتفون باسم عرابي.

فقال الرجل: كان عليك قتله يوم القلعة وجعلت يوم الحادي عشر من سبتمبر لسنة ١٨٨١م هذا هو نهاية عمره.

فقال الخديو باستياء: كان معه الجند والناس.

فعاد الرجل يقول: لكن الجند والناس تمتلئ قلوبهم بالمهابة للسلطان. فقال الخديو بخنوع: كان خطأ.

دخل أحد الحراس يستأذن ويتنحنح كثيرًا حتى أحس به الخديو فاستدناه قائلاً: ماذا تريد جندي؟

فقال الجندي متهيبًا: رجل بالباب يريد المثول بين يدي أفندينا.

فضحك ساخرًا وقال: رجل يريد مقابلة خديو باشا، عرابي دمر الناس، تجرأوا على السلطان، اطرده جندي واجلد ظهره بالكرباج.

فتدخل القنصل وقال: جناب خديو الناس يريدون مثالاً لعدلكم.

ثم التفت إلى الجندي وقال له: أدخل الرجل سريعًا.

دخل الجندي ممسكًا بحسن من ياقة جلبابه، قابضًا عليه كأنه ينكس رأسه للأرض، فبدا حسن مقيدًا مكبلاً بقبضته الجندي الغليظة فلما نظر حسن إليهم جميعًا، خشعت عيناه، وخشي الحديث إليهم، تملكه الخوف والفزع من نظرة الخديو إليه.

ثم صمتوا قليلاً وهم ينظرون إلى جلبابه الحقير، وقدميه الحافيتين ووساخته الظاهرة وقال الخديو: ما اسمك فلاح!

فقال برعب: حسن اسمي حسن أفندينا، أنا لست فلاحًا لكني خادم.

فنظر إليه الخديو نظرة ثقيلة وهو يشير للجندي فتغلظت قبضته على حسن، فقال القنصل: ما تريد خادم؟ أنت خادم مولانا الخديو!

فتخفف الجندي لحظة من قبضته على حسن فارتمى مهرولاً على قدمي الخديو، وهو يبكي ويقول: أنا خادمكم مولاي العظيم، سيدتي مشلولة تريد الطبيب ليعالجها.

وانهمرت منه الدموع حتى بللت حذاء الخديو، فضربه بالحذاء فابتعد وقد استشاط غضبًا وكذا الوقوف، وتدحرجت نظرته نحو الجندي، فقبض على حسن قبضة حديدية وكاد يخنقه، فقال الخديو: سيدتك فلاحة حقيرة تريد جناب خديو ابن الخديو إسماعيل وحفيد محمد علي باشا العظيم مستعبد المصريين، أن يرسل لها طبيبًا يعالجها؟ فلاح خسيس.

استجمع حسن صورة سيدته في بكائها وشللها واستنفر قواه الإنسانية وقال: سيدتي كنانة لو ماتت تقوم القيامة!

فابتسم الجميع رغمًا عنهم، وقال القنصل: إذا ماتت سيدتك تقوم القيامة؟ أية قيامة؟ إن بلادكم كلها ميتة.

فضحك الخديو وقال: وهل أريد أن أنقذها أيها الحقير؟

لاح لحسن قول النديم سريعًا وهو ينظر تحت قدمي الخديو، وقال: الطبيب اليوناني قال لنا: إن طبيب الخديو الفرنسي وحده يستطيع علاجها.

فتجهم وجه القنصل كثيرًا وقال: سيدتك يا فلاح لا ينقذها فرنسي اذهب فلاح، إذا ماتت لن تقوم قيامة أحد سواها.

فلاح للخديو تصديقًا لأمر القنصل أن يخفف الجندي من قبضته لحسن فلما أحس بالقبضة تتساهل هرول خارجًا، وظل يجري ويلتفت وراءه بين الحين والحين، حتى اصطدمت قدماه غير مرة، وكاد يصطدم اصطدامًا عنيفًا، حتى دنا من دار سيدته فتوقف، فلما لم يستطع الوقوف جلس، ثم ارتمى على ظهره وصدره يعلو ويهبط مفزوعًا، وظل يلهث حتى أخذ يهدأ قليلاً قليلاً.

فلما أن هدأت أنفاسه واستراح أخذته الغفوة فنام بجوار دار سيدته، فرأى سيوفًا تتطاير وهو يذب هذه السيوف التي تتناوشه عن بيت سيدته، لكنها تخترقها فتتهاوى، فيهرول ويدع السيوف تدخل ويقول لها: هل قتلت؟ ستقوم القيامة! فتقول له: لا يا حسن... لا...

فنظر إلى وجهها وجده يقطر دمًا.

ثم فجع حسن برجل يركله فزمجر وهو يستيقظ من حلمه ولما لم يجد أحدًا أخذته رعشة، ثم هرول نحو سيدته.

دخل إليها في حجرتها رآها تغط في أحزانها متثاقلة كأنها تنام، لكن لا تنام، فلما أحست به، فتحت عينيها وقالت: حسن، هل عدت بالطبيب من عند الخديو؟

فزمجر مرتعدًا واصطكت قدماه ببعضهما ولم يعد يقوى على

الوقوف فجلس، وهو يقول: ذهبت للخديو يا سيدتي بعد أن ألححت كثيرًا على الحراس، فلما رآني ركلني بحذائه.

قالت كأنها تمزح: هل لبست حذاءً يا حسن؟

فقال بحزن وذهول: طوال عمري وقدماي حافيتان ولا أعرف أن ألبس الحذاء، وقليل من أراهم يلبسون الحذاء، ولا أعرف كيف يدخلونه في أرجلهم ؛ القبقاب أسهل.

فقالت: وهل كان مؤلمًا ركل الحذاء؟ حذاء الخديو من ذهب، مصر تمنحه خيرات كثيرة.

فقال: الخديو يريد أن يدمرك، قلت له سيدتي مشلولة تحتاج طبيبًا، قال لو استطاع لقتل كل المصريين، مولاتي جناب الخديو لا يحبك!

فابتسمت رغما عنها وقالت: لم يبق لي إلا عرابي، اذهب إليه يا حسن وقل له إن سيدتك مشلولة، فلينقذها من الخديو ومن الشلل.

فقال حسن بأسى: لكن الخديو أخرج عرابي باشا إلى رأس الوادي يا سيدتي! نرسل إليه يبحث عن طبيب، عبد الله النديم أرسل إليه.

سمع طرقًا قويًا متواصلاً على الباب، فهرول نحوه، فإذا بجاره عباس يعطيه صينية ثم قفل راجعًا.

دخل حسن بها إلى سيدته، وأقعدها للطعام بجهد جهيد، ثم رأى بجوار الطعام صورة لعرابي باشا وهو جالس ينظر نظرات بعيدة، وعلى رأسه عبد العال قابضًا على سيفه، وإلى جانبه علي فهمي يمسك بيده ورقة مطوية كتب عليها " الدستور "

فنظر حسن إلى الصورة وقد أعجبته، فأعطاها لسيدته، فقالت له: من هؤلاء يا حسن؟

فضحك وقال: لا أميزهم، لكن عرابي باشا فيهم، والآخران

من الضباط.

فابتسمت وهي تحدّق في الصورة وقالت: هذا الجالس هو عرابي باشا، كأنه ينظر إليّ بعد إذا ما شفيت كيف سأمشي، وهذان هما رفيقاه أحدهما معه ورقة والآخر معه سيف، حقا يا حسن أحتاج إلى العلم والقوة، أين أرضي يا حسن إنها قوتي؟

فتحنح ثم قال: الدائنون نهبوها.

فزمجرت وقالت: لعن الله محمد علي وأولاده سعيد وعباس وإسماعيل وهذا ابن الجارية نهبوا أرضي، وتركوني مشلولة!

فقال حسن: لعن الله الخديو توفيق، لقد ركلني بحذائه، لكن هؤلاء لم يأخذوا أرضك بل أخذها الأجانب.

فابتسرت ابتسامة وقالت: ومن جاء بهم؟ إنك لا تفهم كثيرًا يا حسن، هم كلاب.

فقال حسن: هل أنا مولود في مصر يا سيدتي؟

فضحكت وقالت: هل أنت حزين يا حسن لأننا أصبحنا فقراء، بعد أن مات سيدك وأخذ الأجانب معظم أرضي وضاع مني جمالي ولم يعد إلا الشلل، هل تريد أن تعود إلى أهلك؟

فصاح: كلا.. لكن أحب مصر، ولا أحبها.

فابتسمت ورنت نحوه، فوجدت وجهه قد تتضر رغم آثار الضرب عليه وملامح وجهه السوداء تكاد تبرق نورًا من فرط سوادها، لكن سريرته انعكست على ملامحه.

فعاد يقول وهو ينظر خاشعًا للأرض: مصر بلد عظيم، لكن الظلم فيها كثير، والفقراء لا يحبونها، والأغنياء يرتعون فيها حسب هواهم.

فقالت: أنا كنت غنية وأحب مصر، فلما مال بي الزمان ما زلت أحب مصرا!

الفصل الثالث

"وقف الخديو يلقي خطبة العرش بمناسبة افتتاح مجلس النواب الجديد والجميع ينصتون إليه، ومراسلو الصحف والوكالات والأجانب يصيحون له الأسماء ويدونونها"

فقال الخديو "إن مصر تشهد عهدًا جديدًا، منذ أن منَّ الله عليها بسعادة جدي الأعظم محمد علي باشا، ولما جاء سعيد باشا جعل المصريين لأول مرة في تاريخهم يمتلكون الأرض، وسوّاهم بالأتراك، ولما جاء أبي الخديو إسماعيل أنشأ مجلس شورى النواب واليوم نفتتح نحن جناب خديو مصر محمد توفيق بن الخديو إسماعيل هذا المجلس حتى يعيش مصريون مثل أوربيين، يعيشوا ديمقراطية.

ثم ختم خطابه سريعا وعاد إلى قصره في موكب حاشد، وقد تفاجأ به الناس يلقي كلمة الافتتاح ولم ينب عنه شريف باشا رئيس النظار، مجاراة للعرف السائد، فاستبشر الناس والجند خيرًا خاصة بعد إجراء انتخابات المجلس بنزاهة وبعيدًا عن تدخلات الحكومة، ولم تفرض سيطرتها، فأخذ المجلس يمارس سلطاته حسب ما ورد في لوائح تأسيسه وقوانينه الداخلية ووقف ذات يوم شريف باشا يعرض على المجلس برنامج الحكومة، فطالبه المجلس بمناقشة ميزانية البلاد، فزمجر الباشا، وانقسم المجلس على الحكومة، وهوّلت الصحف من هذه المسألة، حتى كتبت إحداها تقول: الحكومة يتهرب من الميزانية، فماذا يناقش المجلس سوى المصروفات والإيرادات؟

الأمر الذي أزعج فرنسا وإنجلترا وطلبتا إلى الخديو ألا يناقش المجلس المصروفات والإيرادات، فأذعن المجلس تحت تهديد بحله من جديد وعودة الفوضى للبلاد، وأخذ الجند يشعرون بضرورة تدخلهم، وباتت الأمور تنذر بتفاقم الخطورة، حتى دعا وزير خارجية فرنسا إلى عقد مؤتمر دولي تحضره الدول الكبرى لبحث القضية المصرية، فوافقت روسيا واليونان وتركيا وإنجلترا.

دخل الضابط أحمد عبد الغفار على عرابي باشا في بيته بالقاهرة وهو مهموم عقب عودته من رأس الوادي وقال له: جناب عرابي باشا أراك مهمومًا فوق ما يهتم إنسان!

فنظر إليه طويلاً وقال: مصر عشيقتي التي أرغب لها العافية يخطو بها الخديو إلى الكساد.

فقال أحمد عبد الغفار: نرسل نشكوه إلى السلطان العثماني في تركيا ما رأيكم؟

فضحك عرابي باشا وقال: أرسل لي راتب باشا، الخليفة لا يريد خيرًا لمصر، يريدها تابعة لحكمه، لكن المصريين لابد سينهضون ببلادهم.

فقال أحمد عبد الغفار: ماذا تريد عرابي باشا؟

فقال وهو ينظر للسقف: انظر يا أحمد إلى هذه السماء التي تظللنا وهذه الأرض التي تقلنا، إنهما هما منذ آلاف السنين، قديمًا كان المصريون يحكمون الدنيا، واليوم يحكمهم الأعاجم، الخليفة يدعي الإسلام، وهو لا يفقه لغة القرآن، قد سمعت أنه أراد إرسال جند لعلاج مشكلة مصر، وإجراء تحقيقات كما رأيت، ثم عدل عن ذلك لما أبلغه ألا ضرر في مصر.

فقال أحمد: مصر عظيمة، لكننا لسنا عظماء، لعلنا لم نلتفت إلى أننا مصريون إلا عند قولك مصر للمصريين، لكن الخديو

كان حكيمًا عندما رفض جند السلطان.

فابتسر عرابي باشا ابتسامة وقال: خديو يخشي على سلطانه، يخاف أن يعزله السلطان، خديو يحتاج الإنجليز أن يثبتوه على عرش مصر حتى لو مات كل المصريين، ولم يجد من يحكمهم، لا يهتم، أنا أعشق تراب هذه البلاد.

دخل خادم عرابي باشا يقول: جناب عرابي باشا، رجل بالخارج يريد أن يلقاكم!

فقال عرابي باشا: أعطه شيئًا واصرفه.

فقال الخادم: أعطيته فلم يأخذ وقال إنه جاء يريدكم بشأن الكنانة.

فعجب عرابي باشا لهذه الكلمة وقال لأحمد عبد الغفار: انظر يا أحمد بدأ الناس يحبون الكنانة كما أحبها، ولم تعد أحوالهم تشغلهم عنها، بل أحوال الكنانة، حفظك الله يا مصرنا، بأولادكِ المصريين، ثم التفت للخادم وقال: أدخله فورًا.

دخل حسن يجر أذيال شجاعته، وقد بدت على ملامحه ألوان الرعب وعلى ملابسه شتي صنوف البؤس وهو يحاول أن يتشامخ فيسقط منه شموخه وسط مخاوفه وهول موقفه.

فلما مثل أمام عرابي باشا قال له عرابي باشا: ماذا تريد أيها الرجل المصري؟

فاندهش حسن ثم قال بصوت متهدج: أنا لا أعلم إن كنت مصريًا أو غير مصري، لكنني أحب مصرا!

فقال عرابي باشا: بارودي باشا ليس مصريًا، لكنه يحب مصر، ونحن المصريين نحب الذين يحبون مصر، والمصريون الخونة نقتلهم، فالولاء للبلاد بالانتماء وليس بالميلاد، ماذا تريد؟

فقال حسن وهو يضع صورة سيدته أمامه: إن سيدتي يا عرابي باشا قد شلت قدماها، وقال الطبيب: لا يعالجها إلا بألف جنيه في أوربا، وقد سلب الخديو إسماعيل أرض أهلها، ولا تملك ألف جنيه، وطبيب الخديو يمكن أن يعالجها بلا مقابل.

فقال أحمد عبد الغفار بحدة عسكرية: اذهب إذن للخديو، وقل له هذا، عرابي باشا مشغول.

فنهره عرابي باشا وهو يرى سيمياء التخاذل على وجه حسن وقال: لا... أحمد بك، إن خديو لا يعالجها، خديو لا يحب المصريين، أبوه نهب أرضهم، فلم يعالجها ابنه.

فقال حسن: يا سيدي أنا لم ألبس حذاءً من قبل، لكن ألبس القبقاب أحيانًا، عندما ذهبت للخديو وقبلت حذاءه ركلني به، وحذاؤه من ذهب.

فقال عرابي باشا: قرأت للنديم حديثًا كهذا، هل هي التي يقول عنها لو ماتت لقامت القيامة؟

فاستبشر حسن وقال: نعم لو ماتت الكنانة تقوم القيامة، لكنها مشلولة هل ستعالجها يا عرابي باشا؟

ففكر عرابي باشا قليلاً ثم قال: أين سيدتك؟

ففرح حسن وقال: هل ستأتي إليها؟

فأخذه عرابي باشا ومضى به، وقد أركبه معه في عربته والناس يتزايدون من حوله وصار موكبه عظيمًا.

فلما دنا من البيت أشار عرابي باشا إلى الناس أن يتفرقوا فلم يتفرقوا إلا بجهد عظيم.

فنظر عرابي باشا إلى المنزل فبدا منزلاً غير قليل الأثاث وتبدو هيئته الخارجية كهيئة بيوت ذوي المكانة، لما دخل منزلها، كان يظنها تقف في استقباله ككل رجال ونساء مصر، لكنه وجد

المنزل قفرًا كأنه يخلو من الروح، فلما أجلسه حسن دخل إليها ينبئها أن عرابي باشا جاء بنفسه يتفقدها، ثم عاد إليه، ودخل به إليها، فلما نظر عرابي باشا إليها وجد امرأة تتشامخ رغم مرضها وجمالها يبدو وافرًا وجسدها مكتنزًا، ولكن ثيابها رثة، وترتدي ألوانًا سوداء وحجرتها غير غنية بأثاثها، فجاهد حسن حتى أتاه بدكة يجلس عليها، ثم خرج يلتمس له شيئًا يشربه.

لما أن جلس عرابي باشا على تلك الدكة قبالة المرأة، أخذت تتفرسه وتحملق في ملامحه وزيه العسكرية وصولجانه وسيفه ومسدسه وقالت له: أهلاً بك يا عرابي باشا، أنا لا أصدق أنك في بيتي الهزيل هذا.

قال متوددًا: المصريون إخوة، وبيوتنا واحدة، لكن كيف حالك؟

فنظرت إلى السماء وقالت: أنا أعظم امرأة في الدنيا يا عرابي باشا، لكن للزمن دورات لا يأمنها أحد.

قال وهو يتفهم مراميها: أخبرني خادمكِ أن بكِ مرضًا في قدميكِ، فهل رآكِ طبيب؟

قالت: ليس عندي مال للطب، وليس في مصر أطباء، والخديو يعالجنا، فهل ستفعل أنت؟

قال لها: ليس عندي ما عند الخديو، فكيف أساعدكِ؟

قالت بحدة: ولماذا تساعدني أنت، لا يلزمك هذا، أنت جندي؟

فقال لها متلطفًا: على أي مصري أصيل أن يساعد المصريين، أنا أحب مصر وأهلها، ولم أفعل شيئًا إلا لحبي لهم.

قالت وهي تتفرس عينيه: وماذا فعلت لهم.؟

انذهل عرابي باشا وصمت لحظات ثم قال: ذهبت إلى الخديو وجعلت الجند والناس يطلبون إليه أن يحقق العدل.

فضحكت المرأة، فاغتاظ عرابي باشا وقال لها: هل تهزئين من قولي؟

فقالت بحسرة: لا... لكنك لم تقتل الحاكم الظالم، ولم تملك طبًا يداوي المرض، ولم تطرد الظلم.

فقال لها: وهل ستتغير سنة الله في الحكم؟ سيبقى الظلم، ما بقي العدل، وأنا أنشد العدل.

فقالت المرأة: هل تعرف أنني كنت أملك ألف فدان ومئات البقرات والنعجات وكان عندنا عشرات الخدم، والرعاة، فلما جاء إسماعيل الفاسق والد توفيق، وكان أهلي يقولون إن أرضه ١٥.... فدان، فلما هرب من مصر كانت أرضه مليون فدان من أين هذه الأرض؟ هي أرض جيراني وأرضي، ابنه يركل خادمي بحذائه الذهبي، ولا أجد ألف جنيه للعلاج، وتقول أنت إن حبك لمصر جعلك تفعل هذا كله، أن تقدم للحية طلبات أن توقف سمومها.

فشمل عرابي باشا هول كلماتها وحدجها بنظرة طويلة وقال: كنت أظن أن امرأة تطلب طبيب الخديو ليست فقيرة، وليست ككل النساء، ولكن يا سيدتي لا تنسي أن المصريين يحيون في الذل منذ مئات السنين ولا يستطيعون الثورة.

احتدت وبان الغضب على وجهها فتورد وقالت: كذبت يا باشا، مصر قادرة على فعل كل شيء، قال لي أبي إن مصر بنت أهرامًا في الجيزة لم يستطع المأمون ابن الرشيد هدمها؟ ولم يستطع محمد علي باشا نفسه نقل حجارتها للقناطر، قال أبي إن المصريين عظماء، لكن الحاكم الظالم ينسيهم ذلك، قال أبي إن عمر مكرم قد ولى محمد علي حكم مصر، لكن الخائن نفاه لدمياط، وقتل المماليك، واستعبد الناس، إني فقدت زوجي وولدي في حروب لا أفهم حتى الآن على من كانت هذه الحروب، أيها

الرجل الذي تحب المصريين، هل تستطيع أن تداوي جراحي؟ إن جراحي عميقة وأليمة، ولا أحسب أن الخديو سيفعل شيئًا إلا قتلي!

قال عرابي باشا: أنا في حيرة كبرى، الجميع يطالبونني بعلاج الجراح، فرنسا وإنجلترا أرسلتا بارجتين عندما أرسل السلطان وفدًا لبحث الأحوال، ولم يغادرا المياه إلا بعد خروج الوفد، والسلطان يحكمنا باسم الدين، ولا يفهم لغة الدين، السلطان مشغول بهموم قصره وقضاياه وحروبه مع روسيا واليونان، والخديو يقول إننا عبيد إحساننا ته وقد ورث مصر، والمصريون يخافون من الثورة، وإذا ثرنا ستقوم علينا الدنيا، فالأجانب لهم مصالح ولهم عند الحكومة ديون، والناس جهلاء لا يتعلمون، والشيخ محمد عبده يقول إن التعليم في الأزهر لا يصلح لنهضة الأمة، حتى الصحف قد أخذ يغيّر فيها عند إشرافه على المطبوعات، فهل سآتي بمصر جديدة كما كانت أيام المصريين العظماء، إن المصري كان يحمل الصخر ولا يكلّ.

فقالت: المصريون قادة الدنيا، قال أبي قبل موته لو استطاع أن يحكم مصر لما رضي، حتى لا يسجن مصريًا ولو عدلاً.

ابتسم عرابي باشا وهو ينظر إلى حسن، وقد جاء له بقدح من القهوة وقال: عرابي باشا قهوة من بيتنا.

فتناول القدح وأخذ يرشف منه بصوت غليظ، ولكنها صبّرت نفسها وهي تتفرس وجهه وشاربه وذقنه الحليق، وعريض منكبيه وتنظر إلى جلسته فتراه مستويًا فوق الدكة فانتظرت حتى انتهى ثم قالت: هل ستأمر حراس قصر الخديو بخروج الطبيب لعلاجي، لقد اشتقت للمشي عرابي باشا؟

فتبسم لها وقال: أنا لم أعرفك حتى الآن فهل تستطيعين أن تتحدثي إليّ قليلاً؟

جاهدت المرأة سريعًا لتكتم دمعًا سخينًا في أحداقها ثم نظرت إلي سقف حجرتها وقالت بحرقة: أنا ليس في خلق الله مثلي، كنت أجمل فتاة في الحياة، وكان جدي يملك بأسًا شديدًا والجميع يخشونه، كانوا يهدون إليَّ اللؤلؤ والجوهر، ثم أخذ أولاد محمد علي باشا ينهبون أموالنا، فكسدت أحوالنا، وقلت مواردنا ومات أهلي في حروب لا نعرف فيما كانوا يحاربون، فررت من الدنيا، ولم يعد لي إلا حسن الخادم الأمين، آه... عرابي باشا إني امرأة مليئة بالكلوم والأوجاع، بحلقي مرارة لو طفحت لملأت الدنيا، أنا لم أدخل المدارس، ولم أتعلم علي أيدى معلمين، لكن خبرات الحياة علمتني كثيرًا، أقول لك يا باشا أنا امرأة فقدت أجمل ما عند المرأة، ليس لي أبناء يدافعون عني، فقدت الحماسة، وكل من كان عندنا خانوني، عندما فارقني جمالي صرت لا أرى من الدنيا إلا زاهدًا فيّ، وأنا قد علمت أنك قد تزوجت من إحدى بنات المراضع ومن أجلها أعادوك إلى الجهادية، لولا امرأتك لم تكن شيئًا، لا تغضب يا باشا، أنا أرسلت للخديو ليعالجني فركل خادمي بحذائه، ولكني لو أرسلت إليه إحدى المراضع لجاءني بنفسه، إن الرجال عبيد طلبات الجميلات!

فتنحنح عرابي باشا في مجلسه ونظر إلى حسن فرآه خاشعًا متأدبًا منصتًا وجوارحه كافة تؤيد أقوال سيدته الراقدة.

فقال عرابي باشا: إن النساء قد أوصانا بهن الرسول والدين الحنيف.

فهزئت قليلاً ثم قالت: أقول لك إن الرجال عبيد طلبات الجميلات عندما كنت جميلة كانوا يركعون عند قدمي، اليوم يهربون مني، ومن يجئ إليَّ لا يلبث حتى يفر إلى إحدى الجميلات، قال أبي إن الأيام لا يقر لها قرار أبدًا، ولا يسالمك الناس إلا إذا كنت جميلاً.

فقال عرابي باشا: لما عرضت مطالب الجند والناس العادلة على الخديو ظن الناس أننا في آخر الزمان.

قالت: لا أعرف لماذا شلت رجلاي، ولكن أعرف أنهما لن تعالجا عبر هؤلاء الرجال.

قال عرابي باشا: الجند طائشون يريدون التمرد على الخديو وقتله وأنا أرى أن نسالمه رغم أنه يلجأ إلى الأجانب.

قالت: لو كنت أعرف لغة الأجانب لذهبت للعلاج هناك أنصحكم أن تعرفوا لغاتهم جيدًا.

قال عرابي باشا: كل صاحب مظلمة يتقدم بها إليّ، ألسنا نحيا عصرًا جديدًا، لقد انتصرنا على الشراكسة، وأخذنا نطبق العدالة، رغم أن الأجانب يتربصون بنا.

قالت المرأة: لما أسماني أبي كنانة ضحك جدي وقال له، ليست كنانة، لكنها ستكون حنانة.

فقال عرابي باشا: محمد علي باشا استطاع أن يجعل مصر دولة عظمى تحدى بها العالم، بنى جيشًا عظيمًا، فتح المدارس، أرسل البعثات إلى أوربا، خافت منه تركيا، فهل نستطيع بناء مصر مرة أخرى؟

قالت: أخذ حق توريثنا لأولاده وأحفاده فنهبونا، وكأن لحمي كان طريًا فتساقط في أوانيهم فأكلوه، لو استطعت أن تقتلهم ثم تقتلهم فافعل!

ففزع لقولها لكنه قال: والخليفة؟

فقالت: هل اقتص لملايين المصريين من حكامه الطغام؟

سيؤيدك، لكنه يريدك تحت لوائه.

قال عرابي باشا وعيناه تنظران بعيدًا: لقد أرسل الخليفة لي أن أقتل الخديو وأصبح أنا مكانه لكي أحفظ الأمن.

جاهدت المرأة وقالت بحشرجة: كأنه يظن أنك ستقتله وتخرج عليه ولن يقوى عليكم فبدأ يغريكم بالولاء له! أنا مريضة وأنا من شيعتك فانصرني وداوني، قال لي أبي إنه قرأ في القرآن أن رجلاً من شيعة موسى عليه السلام استنصره فقتل موسى غريمه.

ثم صمتت صمتًا عجيبًا.

قام عرابي باشا وقال لها: بعد أيام قلائل سأرسل طبيبًا لكِ أو أكثر من طبيب، وسأرسل لكِ كل ما تحتاجين إليه.

خرج دون أن ينظر إليها، وقد بدا عليه الخوف، لما استقر في عربته أخذ ينظر المرأة العاجز جسدها، الطليق لسانها يملأ عليه مرآه فلم يكد يري الجموع تترى أمامه، حتى دخل إلى بيته فوجد الشيخ محمد عبده في انتظاره، فلما ألقى عليه السلام سأله الشيخ: أين كنت يا باشا؟

فجلس عرابي باشا وهو يقول: كنت أتفقد حال الكنانة.

فقال الشيخ: أفندينا لا يألو جهدًا في سبيل النهوض بها وحفظ أمنها.

فضحك عرابي باشا قليلاً وقال هازئًا: أحقًا يا شيخ محمد عبده أفندينا يفعل ذلك؟ ثم استطرد: هل يفعل ذلك بحذائه أيضًا كما يفعله بسوطه؟

لم يع الشيخ مقصده فاستطرد عرابي باشا: ألم يفتح لأستاذك مصاريع البلاد، فلما تولى السلطة أخرجه من مصر مهانًا ذليلاً بلا أدنى تحقيق؟ هل تظن الحق كان مع أستاذك أم مع الخديو؟

فسكت الشيخ قليلاً.

دخل الخادم يحمل صينية نحاسية كبيرة عليها كوبان صغيران من القهوة فتناول الشيخ كوبا وهو يقول: قلت إن أستاذي قال لي إني مثبط، لكني أرى التربة المصرية تحتاج إلى حرث كثير قبل بذر البذور، منابر النور لا تشع ضياءً يا باشا.

فقال عرابي باشا وهو يضع الكوب على الصينية: ماذا أستطيع أن أصنع وحدي، وكل رغباتي لا يوافقني عليها أحد من رفاقي؟

قال الشيخ: يكفي أن الجميع يحب مصر.

فنظر إليه مليًا وقال: الكنانة مشلولة هل عندك لها علاج؟

وجم الشيخ قليلاً ثم قال: الدين يا باشا، علينا بالعودة إلى الدين الحنيف نغير سبل تعليمه، وذلك بتبديل سبل التدريس وكذا اختلاف نظام المخاطبات، إننا نقلد السابقين ولسنا نبدع جديداً، ألم تدهشنا الحملة الفرنسية عندما رأينا تقدم أوربا وتخلف الشرق؟

قال عرابي باشا: شيخ محمد عبده أقول لك: الكنانة مشلولة، نريد لها علاجًا، عندك علاج سريع؟

فقال الشيخ: أنا لست على رأي الضابط محمد عبيد يا باشا.

دخل أحد الخدم مهرولاً وهو يقول: عرابي باشا، عرابي باشا فانذهل عرابي باشا وصاح فيه: ماذا جرى؟

فوقف متأدبًا وقال: شريف استقال من الوزارة.

نزل الخبر نزول الصاعقة على عرابي باشا، وخرج ومعه الشيخ محمد عبده، فإذا بمحمد عبيد يقف أمام المنزل ويقول: لقد كلف الخديو البارودي باشا بتشكيل الوزارة وقبل الباشا.

فقال الشيخ: الكنانة تمر بظروف عسيرة يا عرابي باشا، شريف تخلى عن دوره لما زاد تدخل الجند في السياسة.

فقال عرابي باشا: ليس الجند، بل الأمة، هم يريدون المصريين قطيعًا لا عقل له.

ذهبوا إلى نظارة الجهادية، وجد كافة الضباط هناك، وهم يرحبون بعرابي باشا، وكذا وجد مراسلي الصحف العالمية وبعض القناصل وممثلي بعض الدول، وكثيرًا من الأعيان ينتظرونه، فقال له عبد العال حلمي: عرابي باشا، إن شريف باشا قد ترك الوزارة

في هذه الظروف الحرجة بحجة تدخل الجيش في السياسة، والجيش هو الذي جاء به إلي الوزارة.

فقال علي فهمي: إن مصر ستصمد رغم كل شيء.

فقال عرابي باشا: الكنانة مشلولة نريد لها طبيبًا!

فقال الضابط: أنت الطبيب، أنت رجل الأمة، لا يوجد اليوم في مصر سواك.

فقال عرابي باشا: كيف سنعالجها من الشلل؟

فقال محمد عبيد: اقتل عدوها، تنقذها من الشلل.

جاء أحد الضباط وقال: عرابي باشا دولة البارودي باشا يريدك حالاً.

فمضى إليه، قال أحمد عبد الغفار: الخديو يريد أن يسافر إلى الإسكندرية.

فرد عبد الله النديم قائلاً: يجب منعه، يجب ألا تتركوه يرحل حتى تنتهي الوزارة الجديدة.

فقال الشيخ محمد عبده: هل تريدون حبس الخديو؟ هذا مروق عظيم!

فقال محمد عبيد: لكن الموقف الحالي يقتضي ذلك، وعرابي باشا لن يتركه يخرج من القاهرة.

قال النديم: سفره إلى الإسكندرية خطر شديد.

قال أحد الأعيان: على الوزارة الجديدة أن تنقذنا من هذا الضيم آن لمصر أن تثأر لنفسها من المفسدين، الوزارة الجديدة وزارة حربية، كلها من الجيش.

ثم تفرقوا جميعا إلى أعمالهم.

دخل عرابي باشا على البارودي رئيس النظارة فوجده جالسًا مع قنصل إنجلترا يباحثه في تشكيل الوزارة.

جلس معهما على مائدة واحدة وهما يشربان القهوة، فقال القنصل: نريد من جناب رئيس الحكومة الجديدة حماية المصالح الأجنبية، نريد توفير الأمن!

فقال البارودي: هذه نقطة مهمة، الأمن شعار الوزارة الجديدة، وهذا هو عرابي باشا سأكلفه أن يصبح ناظرًا للجهادية، ويتولى مهمة حفظ الأمن في مصر.

فقال عرابي باشا: يشرفني دولة البارودي باشا أن أكون ناظر الجهادية، وسأعمل جاهدًا على توفير الأمن، لكن لابد أن يفهم القنصل أن مصر بلد آمن رخاء سخاء، منذ القدم وأمنها ينبع من جوفها، لا يفرض عليها، وإن أرادت حكومة بلاده الأمان لمصر، فلترحل ببارجتها من مياه الإسكندرية.

فثار القنصل وقال: كيف نرحل من مصر ولنا فيها مصالح كثيرة مهددة وبلادكم مشلولة؟

فكظم البارودي باشا غيظًا ثم قال: أنا أتعهد بحفظ كافة المصالح وحفظ الأمن أيضًا.

فقال القنصل: ولابد من الحفاظ على حياة جناب الخديو، لازم تقديم ضمانات كثيرة حتى لا تخرجوا عليه مرة ثانية.

فقال عرابي باشا: المصريون لم يثوروا ضده، بل تقدموا بطلبات عادلة، ولو لم يحققها لضربوا عنقه.

فنظر إليه القنصل نظرة هائلة ثم قال: عرابي باشا، أنت رجل الساعة، احفظ أمن البلاد.

ثم قام وخرج وتركهما دون استئذان.

فشيعاه بنظرات حادة، وقال عرابي باشا: ماذا يعني بحفظ الأمن بارودي باشا؟

فتبسم البارودي باشا وقال: لا تهتم، هؤلاء المفسدون يريدون البيوت العامرة فيفسدونها، ويقيمون أهلها حرسًا عليها.

فتحمس عرابي باشا قائلاً: نحن نحفظ البلاد ولن ينهبوها.

فقال البارودي باشا: أشم روائح حروب ووقود، فأنا لا أطمئن للخديو.

فقام عرابي باشا متشامخًا وقال: بارودي باشا، مصريون بدأوا يفيقون، لن يستطيع الخديو فعل شيء بعد اليوم.

ثم خرج عرابي باشا إلى الشارع فوجده غاصًا بجموع الناس يهتفون باسم الوزارة الجديدة، والناس يتراكضون يريدون الوصول إلى عرابي باشا، والجند تحاول تفريقهم لكن الناس كثير.

وقف عرابي باشا فيهم خطيبًا من فوق عربته قائلاً: أيها المصريون أبناء الفراعين العظام أيها الجبابرة لقد جاءكم عهد جديد، تنتصرون للحق، وتدحضون الباطل، اليوم ستبني مصر نفسها من جديد ستعيد كرامتها المنهوبة، وتسترد خيراتها، أعدكم أن أعالجها من الشلل الذي طرأ عليها، وأجعلها تمشي وسط الدول الغنية، إننا عاملون على الإصلاح.

هتفت الناس: يعيش عرابي باشا... يعيش عرابي باشا.

فقال مرة أخرى: لقد كلفني رئيس النظار بحفظ الأمن فليعمل كل مصري على حفظ الأمن، تحيا مصر حرة آمنة مطمئنة.

فرددت الجموع: تحيا مصر حرة آمنة مطمئنة.

الفصل الرابع

أمر عرابي باشا عدة أطباء أجانب بعلاج السيدة كنانة، وعندما عاد إليه رئيسهم قال له عرابي باشا: كيف وجدتها؟

قال الطبيب وهو رجل كبير الهيبة وخطه الشيب: وجدتها تجرجر الماضي وتتحسر على الحاضر!

فاستغرب عرابي باشا وقال: هل سيسهل علينا علاجها؟

فقال له: الشلل الذي أصابها في قدميها ومنعها عن الحركة جاء إليها من الداخل، وجدت قلبها مرجلاً يغلي!

فكظم عرابي باشا غيظًا ثم قال: قلبها مرجل يغلي! بمَ يغلي؟

قال: لست أدري، لكنها لم تتعاون معنا، وقالت لا أريد إلا طبيبًا مصريًا، فلما أكدت لها أني قد قضيت نصف عمري في مصر وأني متزوج مصرية، قالت لي: وهل وحصلت على الجنسية المصرية؟ قلت لها: لا. قالت: ولمِ؟ قلت: حتى لا تضيع حقوقي في المحاكم إذا أصبحت مصريًا. فبكت، وقالت: لقد اشتقت لرؤية أجدادي، وأريد الذهاب إليهم.

فقال عرابي باشا: وهل تجد لها علاجًا؟ إن أمرها يشغلني كثيرًا.

فنظر الطبيب إلى الأرض وقال: هي مريضة جدًا، لا يسهل علاجها لكن ممكن أن تغير نظام الحياة فتشفى.

فقال عرابي باشا مندفعًا: كيف ؟

فقال الطبيب بهدوء: تتزوج!

فضحك عرابي باشا قليلاً، ثم خرج وترك الطبيب، نادت إحدى بناته عليه قائلة: أبى... أبى... أمي تريدك.

دخل عرابي إلى مخدع امرأته، فوجدها في سريرها ترقد مجهدة حاولت الجلوس عند رؤيته لكنها لم تستطع، وأبناؤها حولها قال لها سريعًا: ما بكِ؟

قالت: أصابتني الحمى؟

قال: هل أخذتِ دواءً؟

قالت: نعم!

قال: وكيف أصبح حالكِ؟

فكظمت غيظًا وقالت: سأصبح بخير، لكني أعلم أنك مهتم بمرض امرأة أخرى غيري.

فوجم، فانطلقت زفرات من جوفها تلتها عدة دمعات حارة، فلما رآها تبكي تأثر وقال: امرأة لم تجد سواي يخلصها من المرض، فهل أرد السائلين يا هانم؟ فصمتت، فنظر إليها طويلاً وقال: هل ستكونين بخير حقًا أم أجئ لكِ بطبيب؟

فنظرت إلى أولادها كأنها تريه إياهم ثم أخذت تضمهم إلى صدرها ويبكون.

فاغتاظ وحنق ووقف أمامهم وقال: ما هذا؟ فقالت: تزوجها يا باشا، الملة تبيح لك ذلك، تزوجها فأنت منقذ البلاد، ليس لها غيرك تزوجها.

ثم أشاحت بوجهها بعيدًا عنه.

فخرج وطلب من الخادم قهوة، لما دخل إليه بالقهوة قال له: لا تجعل الناس يدخلون إليّ. فقال الخادم: حتى الضباط يا باشا ؟

فأشار أن نعم.

خرج الخادم وأوصد الباب، فتخفف عرابي باشا من بعض ملابسه وجلس على كنبة يحتسي القهوة بصوت غليظ حتى انتهى،

ثم مدد جسده على الكنبة وهو يستحضر مرأى المرأة أمامه وهي تحدثه بشموخ وكبرياء.

فقال لنفسه: ليس في الحياة مثلي، كنت أجمل فتاة في الحياة، ولكنك اليوم أجمل امرأة في الدنيا، لكن كيف علمت زوجتي بأمركِ كيف؟

تقولين أيتها الكنانة: إن الرجال عبيد طلبات الجميلات فأنا أقول لك ليس الجميلات ولكن العاقلات الحازمات، وهل يجد الرجل شيئًا خيرًا وأحب إليه من امرأة كاملة عاقلة مثلكِ؟

لكنكِ مشلولة القدمين.

آه... ما لهذه الدنيا لا تعطي شيئًا إلا منقوصًا، يقول الطبيب لابد من تغير عيشكِ، نعم، هل أتزوجكِ كما تقول زوجتي؟ تراءت له زوجته وهي تضم الأولاد إلى صدرها، وتراءت أمامه صورة المرأة وهي تناهض مرضها وتتحدث إليه بشموخ.

تراءت له زوجته ضعيفة تستميله إليها بأولادها وتراءت له الكنانة رغم فقدها مالها وجاهها وجمالها وحركتها وصحتها قوية، تراءت له وكأنها لو أرادت أن تشفى لشفيت، لكنها ترى المرض والصحة والحياة والعدم سواء! فهبّ ناهضًا وهو يقول بصوت تسمعه أذناه: لن أتركك تذهبين إلى جدكِ، قالت زوجتي: الملة تبيح لي الزواج بها، لقد فعل الرسول مثل ذلك، أليست الكنانة اليوم مسكينة؟

سمع نداءً من داخله يناديه: هل أحببتها يا أحمد؟ فحملق في صورته وهو ينظر بعيدًا ورفيقاه معه يحملان السيف والدستور وقال: هذه هي نظراتي البعيدة في تلك الصورة، نعم، أنا أحب الكنانة.

خرج من منعزله وأمر الجند بإعداد مركبته وتوجه إليها، كانت الشمس تترنح للاختباء، ونظر إلى بيتها فرآه واطئًا، عتبته أسفل الشارع، قرع الباب طويلاً، حتى خرج له حسن فهش له مرحبًا به، قال عرابي باشا: هل سيدتك بالداخل يا رجل؟

قال حسن: سيدتي لا تفارق المنزل هو إياها. فانذهل ثم دخل إليها بعد أن استأذنها. جاء له حسن بالدكة نفسها فرآها قديمة، خشي الجلوس عليها لئلا تتكسر، لكنه تذكر أنها قد احتملت أقاله المرة الماضية، لما أُجلس أمامها، جاهدت أن تستوي جالسة، فعزم عليها ألا تفعل، فاستجابت وقالت له: مرحبًا بك عرابي باشا أنا أشكرك أن أرسلت لي الأطباء.

فقال: كيف وجدوك؟

فقالت بنحنحة: ما عدت احب إلا المصريين، ولو جاءوني بأطباء الدنيا لن أرضى إلا بالمصريين.

وقال لها: ولو جاءوك بالذي اخترع الطب نفسه من العهود الغابرة هل ترفضينه؟

فهزئت وقالت: لا عليك..... الذي اخترع الطب هو المصري، ألم تشهد الأهرامات، قال جدي لأبي إنه علم من علماء الحملة الفرنسية التي جاء بها بونابرته أن هناك حجرًا اسمه حجر رشيد، وفي حملة الإنجليز التي جاء بها فريزر علم أحد العلماء فيها أن المصريين هم الذين اخترعوا العلوم كلها حتى الطب.

قال عرابي باشا: إن شامبليون فك رموز الكتابة القديمة، فهل قرأ ذلك وعلم به جدك؟

فقالت: ولو لم يعلمه جدي، فإن الحياة كلها تعلم ذلك.

فنظر إليها طويلاً ثم قال: اشهد يا تاريخ، أن أول طبيب في الدنيا كان مصريًا.

ثم ساد الصمت، وهو يُحدِّق في مرآها مكسوة بلفافات خارقة لكن روحها حاضرة، كأنها تنشر جوًا ملائكيًا أضفى على محضرها إيمانًا عميقا، فتفكرت برهة ثم قالت: قال الطبيب إنك صرت ناظرًا للجهادية، فهل كان يخاطرك مثل هذا الحلم؟

فهزىء بها وقال باشًا: ليس حلمًا بل هو مسؤولية، فلقد أوكل إليَّ الخديو مهمة حفظ الأمن، وتعهدت بذلك.

فقالت وهي ترنو إلى عينيه الواسعتين: إذن فالخديو سيعيث في الأرض فسادًا؟

فقال دهشًا: لِمَ؟

فقالت: إنكم جئتم رغم أنفه، ثم تنهدت طويلاً، وقالت: لما قال لي حسن إنك تظاهرت مع رفاقك وقدمتم طلبات عادلة له، ظننت أنه سيرسل خلفكم من يقتلكم، ولكنه لم يفعل.

فضحك عرابي باشا وقال: لم يستطع ولولا رؤيته الجند معي لفعل ذلك.

فقالت: احذره، إني أخشاه عليكم!

فنظر إليها طويلاً، فقالت: لعلك في شاغل عني الآن، أنا أشكر لك سعيك وجهدك

قال معاتبًا: وأي شاغل يشغلني عنكِ وأنتِ الكنانة؟

قالت: لعلها زوجك وأولادك! قال بصفاء وهدوء: أنتِ كل شئ، ثم استفاق لنفسه قليلا وقال: الملة الشريفة تسمح لي أن أتزوج غير زوجتي، فما ترين؟

ضحكت وقالت: عرابي باشا، هل أنت تستشيرني، أنا أقل من ذلك أنا امرأة وأنت الرجل العظيم، أستغفر الله العظيم!

فقال لها: وأنتِ كامرأة أنا أريد أن أتزوجكِ، فهل تقبلين؟

فهزئت قليلاً ثم ضحكت، فاندهش وفغر فاه طويلاً، يحدّق في ضحكاتها وينظر إلى أسنانها البيضاء، وانتظر حتى عادت إلى ملازمة الصمت، وقال: نعم أريد أن أتزوجكِ، فهل عندك إرادة تخالف إرادتي هذه؟

فلاذت بنظرات وصمت، فاستطرد يقول: أنا أعلم أنك مريضة، لكن هذا المرض أمر عارض، وسألتمس لك العلاج من مصر كما تريدين هل أذهب آتي بالشيخ حالاً؟

فصرخت في وجهه: لا.... لا تفعل.

ثم تدحرجت الدموع سخينة على خدودها، فأحس لحرارتها وقعًا شديدًا، فاستباح الانصراف فقام وخرج وتركها وسط أمواج دمعها الهادر.

قاد عربته إلى وزارة الجهادية ليباشر أعمال منصبه الجديد، وظل يرتب الجند، ويرسل قادة الفرق والألايات إلى مواقعهم والجميع ينصاعون لأمره، والمحافظون يستأذنونه عند كل إجراء، حتى البارودي باشا كلما عن له أمر أرسل إليه يستشيره أو يستفتيه فيشير بما يمضيه البارودي باشا، حتى أحس الخديو أن البلاد كلها قبضة يده دونه فتنازعته الوساوس على سلطانه، ، وأخذ يكيد له، حتى جاء كوكسن إلى الخديو في قصره، فدهشه الحرس الجديد، وقد أوقفوه طويلا حتى كشف لهم بلغاتهم عن شخصيته ومكانته من الخديوي فلم يدخلوه إلا بعد أن استأذنوا الخديو ولم يعبأوا بتهديداته التي كان يركع لها الحرس القديم.

وجد الخديو حزينًا عابسًا، قابضًا على لحيته بأصابعه يلاعبها ويمشطها وهو مطرق، ولم ينهض له كالعادة، جلس كوكسن بلا استئذان ثم نظر إلى الخديو يستجلي مخبره، فقال الخديو دون أن ينظر إليه: ما عدت أنا أحكم مصر، الفلاح بات يحكم الفلاحين، ويرون هذا حقهم!

فقال كوكسن: جهدت بالدخول، فهل نسيت من أنا جناب خديو مصر؟

فقال بإطراق: لقد أمرت بتغيير الحرس وجئت بجند أتراك، وأرناؤوط وألبان، عدت أخشى على حياتي من عرابي الفلاح.

فقال كوكسن بحدة: لكنك أنت الخديو بأمر إنجلترا العظمى، والسلطان التركي العثماني، أريدك أن تأمر هذا الحرس ألا يستوقفني مرة أخرى خديو، جناب قنصل إنجلترا لا يستأذن للدخول خاصة أنت!

فقال الخديو: هذا قصري أحكم منه مصر والسودان، أدخل إليه من أشاء أطرد منه من أشاء.

فوقف كوكسن غاضبًا وقال: أتقول لنا ذلك؟سنعود بك إلى منفى أبيك، ونجعل عرابي باشا يحكم مصر.

فابتسر توفيق ابتسامة ووقف وربت على كتفي كوكسن وقال: أنت كوكسن رجل عاقل، أشر عليّ كيف أصنع، عرابي يحفظ جميع تعهداته، ويلتف حوله الفلاحون، أنا أبغضه كالشيطان! ولا أريده يومًا واحدًا على ظهر الحياة، لكن لا أستطيع قتله، أو نفيه وحدي، ساعدني، ساعدني باسم ملكة إنجلترا العظمى.

فابتسر كوكسن ابتسامة وقال وهو يجلس: ماذا تعطينا لأجل أن نعود إليك بسلطانك المطلق؟

فقال بسرعة: وهل فقدت سلطاني حتى يعود إليّ؟

فنظر إليه بسخرية وقال: وهل عاد لك سلطان جناب خديو؟ فلاحون وليت عليهم فلاحًا حقيرًا، جندي نفر، جعلته ناظرًا للجهادية، الوزارة في يديه، لكننا اشترطنا عليه تدبير الأمن حتى نخرب البلاد عندما نريد خلعه، أنت لا تستطيع أن تفعل شيئًا إلا بنا.

فقال الخديو: إنجلترا دولة عظمى، وأنتم أحرار، أما هؤلاء الفلاحون فهم عبيد إحساناتنا، ورثتهم عن أبي وجدي العظيم محمد علي باشا.

فقاطعه قائلاً: لا تقل هذا، لا ينفعك اليوم، فكر كيف ندبر حادثًا أيمًا لعرابي ورجاله الأغبياء.

فقال الخديو وهو يفكر: ندبر حريقًا هائلاً في مجلس النواب، ويختفي الفاعل، ولا يعثر عليه عرابي فنخلعه من الوزارة.

فاستاء كوكسن وقال: كيف لا يجده عرابي والجميع معه يخدمونه؟

فقال الخديو: نخفيه في قصرنا هذا.

فاستاء كوكسن وساد صمت ثم قال: ندبر معركة بسيطة يقتل فيها أحد الأجانب مصريًا فلاحًا دون سبب مهم، ثم تتعقد الأمور، نقتل كثيرين من الفلاحين وتقوم فتنة لا يستطيع عرابي السيطرة عليها.

فقال الخديو: نعم فكرة صائبة هذه، لكن عرابي سيتدخل سريعًا وينقذ الموقف، ونريد قناصل الدول تتقدم إلينا بشكوى ضد الحكومة.

فقال كوكسن: نجعل المعركة بعيدة عن القاهرة، نجعلها في الإسكندرية، أرسل إلى المحافظ هناك أن يفعل ما نرسله من أوامر ولا يستمع إلى عرابي ورفاقه.

قال الخديو: وإن رفض عمر لطفي؟

قال كوكسن: هدده.

قال الخديو: ثم ماذا؟

قال كوكسن: تذهب إلى هناك ويتدخل الإنجليز بحجة حفظ الأمن في البلاد.

قال الخديو: عرابي الخائن أمر رجاله هناك بإصلاح الطوابي القديمة، وتحصين القلاع، يجب أن نسرع قبل استكمال استحكامات فلاحين.

فأومأ إليه أن نعم ثم قام كوكسن وانصرف، فنادى الخديو خادمه وأمره أن يحضر إليه كاتبه، فلما جاءه قال له: اكتب إلى

عمر باشا لطفي محافظ الإسكندرية رسالة تأمره فيها بنبذ طاعة عرابي وأن يطيع حلفاءنا الإنجليز، وعد سريعًا.

فخرج الكاتب وغاب ساعة، وعاد للخديو فوجده كالمرجل لا يجلس ولا يقف، مضطربًا جدًا، فلما رآه ناداه: هل كتبت الرسالة؟

قال بخوف: نعم أفندينا.

قال: اقرأ.

فأخذ الكاتب ينظر إلى الورقة وهو يقول: بعد المقدمة أفندينا كتبت: "لقد ضمن عرابي الأمن العام، ونشر ذلك في الجرائد، وقد تحمل مسئولية ذلك أمام القناصل، فإذا نجح في ضمانه فإن الدول سوف تثق به وسوف نفقد بذلك اعتبارنا، يضاف إلى ذلك أن أساطيل الدول في ميناء الإسكندرية، وأن عقول الناس في هياج، إن الحرب قريبة الوقوع بين الأوربيين وغيرهم والآن فاختر لنفسك هل تخدم عرابي في ضمانه أم تخدمنا"

ثم سكت الكاتب، فقال الخديو: عظيم، عظيم، بالضبط، أنت ماذا ترى؟هل المحافظ يخدم عرابي فلاح أم يخدمنا؟

فانبسطت أسارير الكاتب وقال: لا يجرؤ في مصر من يخدم غير أفندينا ولي النعم!

فزمجر الخديو وقال: لكن الفلاح عرابي لا يخدم الخديو، سوف يرى عرابي، كاتب، أرسل هذه الرسالة فورًا إلى عمر لطفي.

خرج الكاتب وترك الخديو يسبّ عرابي والمصريين جميعًا.

سافر كوكسن في اليوم التالي إلى الإسكندرية، وقد أعلنت الجوائب أنه سافر للتصييف، وقالت في عدد ٥ يوليو ١٨٨٢م أن كوكسن يفكر في مشروع عظيم يفيد الحكومة، ذهب إلى شاطئ البحر يرتب أفكاره هناك حيث الهدوء والجو الذي يساعده.

وبعد وصوله بيومين خرج شقيق خادمه يتنزه بعد أن اقترض من أخيه مبلغًا من المال، واستأجر حوذيًا مصريًا وأخذ يطوف به على المقاهي والحانات حتى انتصف النهار، وذهب أخيرًا إلى شارع البنات عند قهوة القزاز، فدخل حانوتًا ولم يخرج فدخل الحوذي خلفه يطلب منه أجرته، فأعطاه قرشًا صاغًا، فغضب الحوذي، وتبادلا عدة شتائم فدخل المالطي إلى المطبخ وأخرج سكينًا وضرب بها الحوذي حتى أرداه قتيلاً ثم فرّ يطلب الهرب.

فجاء بعض الوطنيين لما رأوا الحوذي قتيلاً، وكان أهله قريبين والموظفون يشغلون الشارع ساعة الازدحام في يوم الأحد هذا، فطلبوا القاتل فما أجيبوا إلا بطلقات نارية جعلتهم يتفرقون خشية القتل، ثم ذهبوا وعادوا ببعض النبابيت والشوم وبقايا الكراسي، وصارت معركة وأخبروا ضابط القراقول فوجدوه في أجازة فأخبروا المحافظ فلم يرسل جندًا، حتى إن بعض الأجانب أخذوا يطلقون النيران على الوطنيين وهم بعيدون عن المعركة، فوقع كثيرون من القتلى المصريين، وأمسك أحد الأجانب بمسدس وأخذ يضرب به المصريين فضرب نفسه فمات.

وجاء بعض السفلة يسرقون وينهبون ويسبون، وأرسل عمر لطفي إلى عرابي باشا يخبره، واشترط ألا يتدخل الجند بالسلاح، فما لبثوا إلا قليلاً حتى هدأت الأمور.

ولكن بعد قليل تشاجرت الشرطة مع الأهالي، وتشاجر المسلمون نع المسيحيين ونسى الناس القتلة، ثم نزل كوكسن يرتدي زيًا ملكيًا يتنزه مع خادمه، فاعتدى عليه بعض الناس، وضربوه، حتى جرح وولى هاربًا، فلقيه عمر لطفي فأخذه بعيدًا، ثم كثرت المعارك وانتقلت إلى رأس التين والرمل وغيرهما، حتى اضطر عرابي أن يرسل آلايا من الجيش يعيد الأمن.

لما علم البارودي باشا بتلك المذبحة أخذ عرابي باشا وتوجها نحو الخديو وشهرا السيوف في وجهه وقال عرابي باشا، أنت تجر البلاد إلى الضياع وتريدها بلادًا مهزومة، أنت تكره المصريين.

فقال الخديو: لكن أنت مسئول عن الأمن، كيف يكون الموقف أمام قناصل الدول الآن؟

قال البارودي باشا: الإنجليز هم الذين دبروا هذه المذبحة!

فقال الخديو: وهل عندك دليل يا باشا؟ اتق الله.

فقال عرابي باشا: إنك تضيع الكنانة.

فقال توفيق: لقد ورثت هذه البلاد، كانت قبل جدي العظيم محمد علي باشا خرابًا، هل كان المصريون يشعرون أن لهم جيشًا يدفع عنهم الأعداء قبله؟وهل كانوا يحسبون لهم كرامة قبله، وسط أمم العالم المتمدين؟احتلها الفرنسيون وانتهكوا حرمة الأزهر وداسوه بالخيول، لكن جدي العظيم بنى لها مجدًا وقد ورثته فسأحافظ على ميراثي في قبضتي!

قال عرابي باشا: الفرنسيون داسوا الأزهر بالخيول وأنت تضربنا بحذائك.

فزمجر البارودي وقال: احذر غضب المصريين.

ثم بدا متضايقاً جدًا وطوّح بالسيف نحو الخديو، لكن غرابي باشا أخذه وخرجا سريعًا، فقال له البارودي: اتركني أقتله، والله لقد كان محمد عبيد على حق في كل ما دعانا إليه.

فقال له: بل نهدأ أولاً ثم نعيد الأمور إلى نصابها يا باشا.

بينما هما في الطريق لقيا عبد الله النديم يبحث عنهما، فتوقفا يحادثانه، قال النديم: أين كنتما؟

قال البارودي باشا: عند الخديو في قصره.

فقال موجهًا كلامه إلى عرابي باشا: عرابي باشا إن مصر كلها تقف وراءك اليوم، فاخلع هذا الرجل وأعلن الجمهورية كي تصبح مصر مثل فرنسا.

فتحمس البارودي باشا وقال: نعم، وهذه الأحوال تساعدنا على ذلك وأنا أضمن لك قناصل الدول.

ففكر عرابي باشا برهة وقال: هل أنا طامع في حكم مصر؟ كلا.... لست طامعًا في حكم مصر، الإنجليز سيحتلون مصر عندما نخلع الخديو ويرسل السلطان جنده، وتصبح مصر حديقة دماء، أنا لا أستطيع جر بلادي وأهلي إلى هذه الحروب.

فقال النديم: إن المصريين عظماء يحتاجون للقائد والزعيم، اشحذ هممهم، وستجد الجبابرة وراءك، وهل سترسل الجيوش سريعًا؟ وفرنسا سوف تقف معنا ضدها.؟

قال البارودي باشا: السلطان لا يريد إلا الولاء له، ونستطيع حشد مليون جندي، فهل ستهزمنا إنجلترا؟

فقال عرابي باشا: لن تقف معنا فرنسا، لأن إنجلترا تركتها تحتل تونس، لقد باتت مصر فريسة إنجلترا.

ثم سكت وسكتوا جميعًا، ومضوا معه إلى منزله فوجده غاصًا بالمشايخ والنواب والعلماء والوزراء، يتصايحون ويتناقشون وبعد قليل جاء محمد سلطان باشا وقال: إن الخديو يريد السفر للإسكندرية للتصييف، وبحث أزمة الحادثة الفظيعة، وقد أخبرني حالاً أنه سيسافر غدًا.

فقال عبد الله النديم: عرابي باشا لابد من منع الخديو من السفر إنه لا يرحل إلى الإسكندرية، إلا ليرتمي في حماية الإنجليز.

قال الشيخ محمد عبده: إن مصر تمر بمرحلة عصيبة، وأرى أن البلاد لن تتقدم إلا بالإصلاح، في كل المناحي في التعليم والسياسة، كيف نمنع الخديو من السفر لمدينة من بلد يحكمه؟

فقال أحمد بك المنشاوي أحد النواب: لكن يا شيخ محمد عبده الوضع السياسي عصيب، وعندما يحتمي الخديو بالإنجليز سيتخذونه ذريعة لحرب مصر.

فقال عرابي باشا: على أية حال نحن لا نريد توقيع إيذاء على الخديو، فإن أراد السفر فليسافر.

بينما هم في ذلك دخل السردار وقال بلهجة شديدة الصرامة: إن أفندينا يأمر البارودي باشا بالاستقالة، ويتهمه بعدم حفظ الأمن وقد كلف جنابه راغب باشا بتشكيل الوزارة الجديدة، وسوف تأتي الأوامر الخديوية في الصباح مكتوبة.

فشهر محمد عبيد سيفه وذهب نحوه ليقتله، لكن عبدا لعال حلمي حال دون ذلك، فانصرف السردار مهرولاً إلى القصر.

وقال عبد الله النديم: والله لا تصلح هذه البلاد إلا إذا خلعنا هذا الرجل وأعلنا الجمهورية.

فقال محمد باشا سلطان: ومن يكون رئيسًا للجمهورية؟

فقال أحمد بك المنشاوي: ليس في مصر سوى عرابي باشا، هو أحق الناس بها.

قال سلطان باشا: لمَ؟

قال محمد عبيد بلهجة التهديد: لأنه أكثرنا وطنية، وهو الذي أعلن أن مصر يجب أن تكون للمصريين، أحمد عرابي يلتف حوله الشعب، ويحبه الناس وتوكيلاتهم له تشهد بذلك عندما طلبوا منهم ذلك وكلوه بالحديث عنهم وجمعوا توكيلات كثيرة أدهشت الخونة، أم ترى الشعب يحب الخديو وأعوانه الخونة؟

قال سلطان باشا: هل تظن أن هؤلاء الفلاحين يفقهون شيئًا في السياسة؟

قال الشيخ محمد عبده: المصريون لو تعلموا فسوف يفعلون عجبًا.

قال عرابي باشا: كفوا عن هذا الضجيج، البلاد تحترق اليوم، نريد تشكيل لجنة للتحقيق في حوادث الإسكندرية، ونقدم الفاعلين إلى المحاكم.

فقال محمد سلطان باشا: هذا قول عظيم، وإننا سنحاول أن نقنع أفندينا بهذا، وقد يكون له رأي آخر!

فصاح صوت وسط الجموع: إن مصر ما تزال يحكمها نظام محمد علي باشا، ونظام الحكم الذي وضعه لم يكن قرآنًا عظيمًا، الخروج عليه كفر وإلحاد، بل هو نظام أفسح له التاريخ مكانًا في عصره وأهله، واليوم نحن لنا الحق، ما إن خلا من معجزات كالقرآن أن نخرج عليه، بل إن الكفر يضمه هذا المسمي توفيقًا، ووالله ما هو بتوفيق أبدًا، بل ضلال فوق ضلال علاه ظلمات مظلمة، فماذا قدم للأمة؟ وماذا فعل ليصبح الحاكم الشرعي؟ وأي شرع هذا الذي أتي به للحكم؟ إن محمد علي باشا عبقري عصره لكنه شابه معاوية أواخر الأيام.

ثم سكت الصوت القاذف، فتوجهت الأنظار نحوه وقال محمد باشا سلطان: من الرجل؟

فالتفت إليه محمد عبيد وقال: صوت مصر، مصر كلها تقول ذلك، أليس كذلك يا رجال الأمة؟

فصاح الضباط والنواب من خلفهم: بلي هو كذلك.

فقال عرابي باشا: اهدأوا جميعًا، فإننا نمر بظروف قاسية.

ثم خرج سلطان باشا وكثيرون تبعوه، حتى انفض المجلس دون الوصول إلي عزم أكيد، فقال محمد عبيد لعرابي باشا همسًا: لابد أن نمنع هذا الخائن من السفر للإسكندرية، إن سفره خطر عظيم.

فقال عرابي باشا له جهرًا: بل سفره يفيد حيث يطمئن قناصل الدول ويطمئن علي الحال هناك، لا تخف يا عبيد.

فقال عبيد: لا والله إني خائف جدًا.

تركه عبيد وخلا البيت إلا من أهله، فدخل عرابي باشا إلي مخدعه ونظر إلي زوجته فوجدها غارقة في بحار دموعها، وهي جالسة أمام المرآة تبكي وتنوح، فدنا منها وقال لها: ما بالكِ يا هانم؟ لم هذا البكاء؟

فلم تلتفت إليه وقالت: لا شيء يا باشا، هل أجئ لك بطعام، أنت متعب جدًا.

فابتسم وقال لها: كيف ترين الحال الحاضرة؟ الجنود يطلبون أن أمنع الخديو من السفر للإسكندرية، لكنني لا أستمع إليهم في هذا، فما الصواب عندكِ؟

فمسحت دموعها وهي تراه يراها دون اكتراث وقالت: حضرتكم أكثر مني عقلاً، وأوفر مني رأيًا، إنها مصر، وأنت رجلها اليوم افعل ما تراه صالحًا، سأذهب عند الأولاد، لا أحب حديث السياسة، بإذنك يا باشا.

خرج عرابي باشا فلقيه الخادم فقال له سيدي: هل أحضر لك غذاءك الآن؟

ابتسم وقال بحنو: ماذا عندكم اليوم؟

فقال الخادم: ذبحنا خروفًا.

قال: وهل طبخته كله؟

قال الخادم: كلا يا سيدي، طبخنا بعضه ووزعنا بعضه وبقي بعضه.

قال له: أعد لي هذا البعض الباقي في لفافة، وقل للسائق يعد العربة حالاً.

ثم دخل غرفته واستبدل ملابسه بأخرى عادية، ثم خرج إلى درب الجماميز، مضي على قدميه يحمل اللفافة حتى وصل إلي

الكنانة، وجد الباب مفتوحًا، والليل يكاد يطبق، وحسن قابع خلف الباب ينكت في الأرض بعصا صغيرة، ويحدو حداءً مريرًا.

طرق فوق الباب عدة طرقات حتى تنبيه حسن. فقام مرحبًا به.

فقال له: خذ هذه اللفافة يا حسن بها بعض اللحم واطبخه لسيدتك حالاً.

أخذ منه اللفافة ووضعها على الأرض دون أن ينبس، فارتاب عرابي باشا قليلاً، ثم قال له: ما بالك؟ افعل ما أقول لك اطبخ هذا اللحم لسيدتك.

مضي حسن خطوات وجاء بشمعة وقال: إن سيدتي أمرتني إذا جئتها أن تدخل عندها بلا استئذان، فهل تريد؟

فقال وهو يرتاب من حسن: نعم أدخلني إليها.

وجدها جالسة وقدماها ممدودتان على السرير، وقد ضفرت شعر رأسها وجدلته، وخضبته، وازينت كأنها عروس ليلة جلوتها، وقد أضيئت غرفتها بشموع ومصابيح، فدهش لهذا كله، ولما نظر إلى وجهها رأت عيناه ابتسامة انشرح لها صدره.

وجد بجوار سريرها سريرًا جلس عليه، وتأمل ملابسها فإذا هي جديدة زاهية ألوانها، وتبدو الحيوية متدفقة في عروقها وكأنها لا تشتكي مرضًا، ولا همًا، فقال لها جزلاً: كيف حالك؟ اليوم أراك بخير.

أخذت تواري وجهها كأنها عذراء في خدرها، فأخذته رعدة في أوصاله سرى مفعولها إلى قلبه فقام يجلس جوارها، وأخذ بيدها، وهمَّ بلثمها، فجذبتها منه جذبة انتفض لها جسده كله، حتى ارتج عليه، فارتمى على الكرسي يلتمس الراحة، قالت له بهدوء: قد تزينت اليوم ولبست الملابس التي أهديت لي يوم عرس منذ سنوات بعيدة، وجاءني حسن بكرسي جديد، فما رأيك، أليس هذا الجمال أفضل؟

تمالك زمام أمره وقال: الجمال دومًا أفضل!

نظرت إلى قدميها بتألم وقالت: عرابي باشا حقًا الجمال عظيم، لكن أبي كان يقول دومًا إن القوة هي أهم شيء، من انتزعها منك فقد انتزعك، وخير لك أن تموت ما لم تكن قويًا، هل ترى شابًا يتمني الموت؟ بل الشيوخ.

فطن لحظة لمرماها ثم قال وهو يبتسم عن ثغر عريض: هل فكرت فيما عرضت عليك يا هانم؟

ضحكت ضحكة بلهاء وقالت: وهل يصلح ذلك عرابي باشا؟

إن عندك امرأة وأولادًا وما هو أهم.

فتجشم وقال: وما هو منك يا كنانة؟

قالت: هل تنسي المهام الجسام؟

قال: نعم... مصر فيها غيوم، لكن هل ستنصرف عن الحياة من أجل السياسة، بل نعمل للسياسة عندما نرتوي من الحياة.

قالت: لم يكن المصريون يفعلون ذلك من قبل فلم جئت الآن؟

فقال وهو يرنو إلي بعيد: إنما جئت لأنفض عن مصر غبار التاريخ، وأدران الحلفاء والأعداء علي السواء، جئت لأضع سيفًا، حربًا وتقتيلاً وإبادة، لكأني أحمل معي سفينة كنوح لن أحمل فيها إلا من أريد.

نظرت إليه في شموخ وقالت: ومن تريد في هذه السفينة؟

قال: أنتِ قبل كل شيء أيتها الكنانة!

قالت: ثم من؟

قال: كل مصري لا يخون وطنيته.

فقالت بحدة: إذن فاقتل ثم اقتل، لا حياة بلا قتل.

فقال: سأدعو قومي سلمًا، وإلا فليس إلا السيف، لكني لا أريد أن أساق إليه قسرًا.

فقالت برنو عميق: هل تريد أن تتزوجني؟

فقال بلهفة: نعم أريد وأحب!

قالت: لكنك متردد جدًا.

فقال: كلا... لو شئت تزوجتك الآن.

قالت: وهل ستمكث معي وتترك مهامك الخطيرة؟

قال: نعم، لقد أقال الخديو الوزارة، قد أخرج من الوزارة الجديدة!

قالت: وهل تريد أن تخرج من الوزارة وتتزوج من امرأة شلاء؟

قال: ليس هكذا، ليس الزواج يمنعني لكنى إذا خرجت من الوزارة، قد أحال إلى الاستيداع، لكنني أعلم أنهم لا يستطيعون فالبلاد لا تأتمر إلا بأمرنا، يستحيل علينا أن نخرج.

قالت: هل ستقدم لي مهرًا يا باشا؟ أم تقول شلاء لا قيمة لها؟

قال: بل أقدم لك ما تشائين، مريني، فإني أحبك حبًا صادقًا، امتلك عليَّ وجداني كله، وصار أمري كله بيد هذا الحب العظيم!

فقالت: كنا أغنياء، جاءني المرابون خانونا، أخذوا مالي نهبونا، مهري يا باشا أن تنتقم منهم، وإلا لن أتزوج.

نزلت الكلمات عليه ثقيلة، فمكث ينظر إلى عينيها وقد احمرتا وقال: إن المرابين يمسكون كل شيء، ووراءهم دول أوربا: إنجلتره، وفرنسا، واليونان والنمسا وألمانيا وغيرهم وكيف ننتقم منهم جميعًا؟

فقالت: ألم ينتقم محمد علي باشا من مئات المماليك وعشرات من الأشراف؟ لا شيء يعظم على العزيمة الماضية.

قال لها: إنما ألتمس عندكِ مزيدًا من الطمأنينة، أبتعد عندكِ عن السياسة، فإذا أنتِ نفسكِ كلكِ سياسة وحروب!

قالت: ألم تقل إنك تضع سيفًا؟

قال: نعم!

قالت: فافعل.

قال: هل أعلن الجمهورية، وأخلع الخديو لتهدأ ثائرة الرجال ويكون ذلك مهرك؟

فابتسمت وقالت: إن لم تفعل فإنهم يقتلونك!

قام من مجلسه وخرج ولما رأى حسنًا قال له: لمَ لم تطبخ لسيدتك يا حسن اللحم الذي جئتك به؟

فنظر للأرض وقال: أمرتني سيدتي ألا أجئ لها بلحم حتى يقتل خونتها!

فهمَّ بالخروج، لكن حسنًا استوقفه وقال: عرابي باشا حرام عليَّ ما حرمت سيدتي أنا وفي لها.

ثم ناوله اللفافة.

فأخذها عرابي باشا ثم خرج فركب عربته، وقال لنفسه: أنا لابد أن أسحق هؤلاء الخونة، لابد من قتل الجميع أو حتى نفيهم، قالت الكنانة الجمال عظيم ولكن القوة أعظم، إن سلب الرجل قوته، فقد سلب كل شيء، نعم هؤلاء الناهبون لأموالنا، وخيراتنا لابد من طردهم، حتى متى يصبر المصريون على مص دمائهم، حرمت عليهم الخيرات وهي نتاج زرعهم؟

ثم قال للسائق: هل عندك أرض زراعية يا إبراهيم؟

فابتسم السائق قائلاً: عند شيخ البلد والعمدة والباقون يعملون عندهم إجراء يكدون دومًا ويعطونهم فتاتًا.

قال عرابي باشا: لكن أفندينا سعيد باشا جعل المصريين يملكون جميعًا الأرض الزراعية، فكيف لا تملك أية أرض؟

قال: لقد منَّ الباشا على المصريين بذلك لكنه عاد وأخذ ضرائب لسنوات مقدمًا، فباع الناس الأرض للذين استطاعوا

دفعها، وعندما جعل المصريين يملكون أرضهم ووطنهم كان فرحًا، أبي كان يقول دائمًا لأخي الكبير عندما يهرب من الجهادية، لو طردونا من مصر فإلى أين نذهب؟

قال له: هي أرضنا كيف نطرد منها؟ وبعد أسبوع أخذوه في السخرة ولم يعد، فقالت أمي لن أنجب بعد اليوم فأولادي يموتون.

ثم أخذ إبراهيم يبكي بكاءً مكتومًا.

فكظم عرابي باشا غيظه وقال: أسرع يا إبراهيم أسرع.

الفصل الخامس

دخل حسن إلى سيدته في ملبسها الجديد، وجلوتها الحلوة وقال لها: سيدتي، إني أحبك، لكن عرابي باشا أيضًا يحبك، هو الوحيد في مصر الذي قبل أن يعالجك، لكنه لا يجد طبًا في مصر فما ذنبه؟

فقالت: اسكت يا حسن إنك لا تعرف شيئًا عن الرجال، وطلبات الجميلات.

فقال بإطراق: هل حقًا يريدك زوجة؟ ألا يعلم من أنت؟

فقالت: غره منى كلامي، وغره مني ملامحي، هو لا يعرف من أنا، وما قد حشوت في الأحشاء من النكبات والحسرات.

قال حسن: لكنك رغم ذلك ما زلت عظيمة، تبهرين الأنظار وجمالك ناطق بيِّن.

فقالت: قلت لعرابي باشا الآن، إن القوة خير من الجمال، أنا أجمل نساء الحياة، لكني لا أستطيع الحركة، قد لا ألد إذا تزوجت، فهل تحب أن تكون سيدتك عاقرًا؟

فقال: عندنا رجال مثل عرابي باشا ورفاقه وتكونين عاقرًا؟

لا والله إنهم رجال أقحاح؟

فقالت بحسرة: آه يا حسن، اخرج اتركني، أحب أن أتكلم مع نفسي قليلاً، كما أوصتني أمي عندما ماتت قالت لي: إذا عد مت كل شيء فحدثي نفسك!

قال حسن مسرعًا: دومًا تحدثين نفسك، وأنا خاشع عندك، ألا أستحق أن أستمع يومًا إليكِ لأعلم؟

نظرت إليه بجمالها كله فاستغرقته نظرتها وقالت: بل تستحق أنت من المخلصين.

استمع يا حسن ولا تتحدث بما أقوله إلا إذا أنا مت.

قال: وهل أنتِ أيضًا تموتين؟ كلا يا سيدتي، قلت للنديم لو ماتت الكنانة تقوم القيامة!

ابتسمت وقالت: أنت تقول ذلك لأنك تحبني، أما الأعداء فكل همهم نهب خيراتي ولا يبالون لو مت.

فقال سريعًا: وهل يستطيعون، الله وحده الذي يجعلك ميتة يوم القيامة.

قالت: استمع يا حسن ولا تقاطعني، فلقد وددت لو استطعت أن أقول له عن هذه التي جاء يخطبها، أنا أعلم أن عرابي باشا جاء إليَّ متوددًا ليضمد الجراح التي تقتل ذاتي، ويميت السوس الذي ينخر في عروقي، لكنه لم يعرف أن الجذور بها مرض عظيم، يحتاج عرابي باشا أن يصلح الجيل كله، أو يصلح النفوس، فهل يستطيع؟ لو أرادني أن أتزوجه فعليه أن يعيد لي أرضي وحريتي ويخرج المرابين والخونة أولاً، وقبل كل شيء، ثم يعالج الشلل الذي ألمَّ بي، فإن لم أكن صحيحة الجوهر، فلا قيمة للمظهر، بغير هذا لن يجد امرأة تصلح لمناكحة الرجال، سأكون عاقرًا لكنه سيجبن ويؤثر السلامة، قرأت في عينيه أنه لا يحب سفك الدماء، ولا يحب القتل، فهل يصل إلي ما أشتهي بغير هذا؟

هل سيخرج الناس من أرضي إلا قتلي؟ هم ذاقوا خيراتها جعلوا الفلاحين يزرعون ويحصدون هم، وأنا صاحبة الأرض ليس لي منها شيء، ولما أرادوا شق الترع والمصارف وعملوا مشروعات سخروا

الناس وضربوا ظهورهم، وقتلوا أبنائي في حروبهم التي ما جنيت منها شيئًا ولا أهلي، ثم يريد عرابي باشا أن أتزوجه، ويراني مشلولة ويريد أن أتزوجه.

ثم أجهشت بالبكاء، فسارع حسن وأتاها بقطعة قماش، وهو ينظر إليها نظرة عميقة، كأنه يستكف لنزول هذه الدموع السخينة، ثم أخذ القماشة وقد ثقلت وعاد إلى مجلسه خاضعًا خاشعًا، قالت له: يا حسن، قم واجلس على هذا الكرسي، فأنت عندي كريم!

قال همسًا وحلقه يشق عليه إخراج الكلمات: أنا أجلس مكان عرابي باشا؟

حقًا أنا لا أستطيع القتل، لكن لا أجلس مكان عرابي باشا، أنا أعلم أن مخالفتي لكِ خطيئة، لكنه عظيم!

ضحكت ضحكة غير مهضومة وقالت: هل حسبته سيصير زوجي يا حسن؟

إن عرابي باشا جميل ولكنه مسالم وعالمنا قوة واغتصاب.

يا حسن أبي مات وجدي مات وأولادي، وأنا، أنا سأموت، لكن عرابي باشا لن يموت، قلت إنه عظيم!

فغضب حسن وبدا في ضوء الشموع مخيفًا وهو يقول: عرابي باشا يروح ويجئ، يصير زعيمًا أو يسجنونه أو يعدمونه أو ينفونه أما أنتِ يا سيدتي فباقية!

ضحكت وقالت: يا ليت عرابي باشا يقول لي ذلك!

فقال: لكن هل سيطلق زوجه؟

كظمت آهةً وقالت: وهل الذي يحبني يجد عندي هذا العذاب يا حسن؟ ألا تعرف ماذا يمكن أن تعطي سيدتك لمن يحبها؟ أنا يا حسن نظرة مني تعطي حياة طويلة، من يحبني يا حسن فهو يتقرب

بحبي إلى الله، أتعلم لو أن هؤلاء المرابين والخونة جاءوني ودخلوا في حبّي لأعطيتهم كل ما يشتهون؟ هل حرمت أحدًا خيراتي أبدًا:

قال بدموع وشهيق: لا..... أشهد لكِ بهذا، لكن أنتِ اليوم مشلولة ورجال مصر لا يستطيعون علاجكِ، فهل هم عاجزون؟

قالت: لا يا حسن ليسوا عاجزين، لكنهم أقل قدرة من مواجهة الخيانة، هم تلاميذ وليس لهم أساتيذ.

فقال حسن: أنا سأذهب عند الشيخ محمد عبده لأنظر لكِ كيف سيقوم بالإصلاح الذي قال عليه باشوات مصر الكبار!

قالت دهشة: إصلاح!.... الشيخ محمد عبده نادى بالإصلاح؟ كيف ذلك يا حسن؟ أخبرني!

قال وهو يجلس القرفصاء كأنه سيلقي درسًا وأساريره تتهلل بشرًا: محمد عبدة شيخ تعلم في الأزهر، قال لي حوذي إنه لما تولى الرقابة على المطبوعات قال لهم: هذه المطبوعات لا تصلح، لابد من إصلاحها، فقال له النديم وهو خطيب عرابي باشا في كل ناد، وراء هذه المطبوعات نظم. فقال له الشيخ: نصلح هذه النظم.

قال لي الحوذي: فضرب الحاضرون كفًا بكفٍ وقالوا هل تصلح النظم الدينية يا شيخ محمد عبده، هذا ابتداع في الدين نعوذ بالله منه؟

فقال لهم: لا....... لكنه تجديد، دعا إليه الرسول، وقد اختلف العصر عن السابق، وإذا ظللنا على ما نحن عليه سنتخلف.

فقال له النديم: وهل نحن متقدمون حتى نتخلف؟

فقال الشيخ: لا....... لكننا يمكننا أن نتقدم وهذا ما أدعوكم إليه، وسيجيء اليوم الذي تعلمون صدق قولي، أنا لا أنام من التفكير في هذا كله ؛ الدين، اللغة، السياسة.

فابتسمت وهي تقول: وهل تعلم كل هذا يا حسن؟

فقال فرحًا: نعم؟ المصريون كلهم لا يتحدثون إلا عن هؤلاء لقد أصبح في مصر رجال يتحدثون عنها ويطالبون الخديوي بالإصلاح.

قالت: وهل سيستجيب الخديو يا حسن؟

قال: لا أعرف، لكنهم جميعًا ملتفون حول عرابي باشا، ولو تزوجكِ سيعيد لكِ كل شئ ضاع.

قالت: اخرج يا حسن، اخرج!

ثم كظمت غيظها فنظر إليها بتوجس وخيفة ثم همّ سريعًا بالخروج، قالت له بغلظةٍ، أغلق الباب.

فنظر للأرض خاشعًا وهو يغلقه.

ثم نظرت إلى السماء وقالت: أين أنتم يا أجدادي؟ كنتم عظماءً، اخرجوا الآن، لا أستطيع الحياة في هذا الهواء، وهذه الأجواء، تركتموني وقد أخذتم معكم القوة، تركتم الأجانب ينهبون أرضي، هل رضيتم بالموت، أنا امرأة ضعيفة فهل أتزوج يا أبي، هل أتزوج من عرابي باشا الذي تلتف حوله الجموع؟ إن بعينيه ضعفًا، أو خذلانًا، وعنده تردد شديد، عرابي، عرابي، عرابي لا يستطيع قتل الخونة ويعيد لي أرضي، هو يحتاج إرادة محمد علي باشا عليه وعلى أولاده وعلى أحفاده اللعنات، نعم يا أجدادي، نعمٍ يا أجدادي سأبث فيه الإرادة، هل أنا قليل؟ آهٍ... لو علم عرابي حقًا من هم أجدادي! آهٍ لو علم مبلغ قوتهم، وعظمة مكانتهم، لذبح خراف الطغيان كلها عند قدمي، لكن من يقول له ذلك؟ لو قلته أنا سيقول: نعم، سأقول له، وإلا لن أتزوجه، هو يحبني شفقة، لكنه قريبًا سيجدني أشهى من ذلك.

خرج عرابي باشا إلى عبد الله النديم وعبدا لعال حلمي وعلي فهمي وهم متجمهرون أمام بيته فقال لهم: ماذا تريدون؟

قالوا: الخديو انضم إلى جانب سيمور ولم يجر تحقيقات في مذبحة الإسكندرية.

فقال: نحن كلفنا وزارة راغب باشا بذلك فما شأن الخديو؟

فقال النديم: عرابي باشا، إن عدد القتلى ١٦٣ مصريًا عدا من لم يعثر على جثثهم، وعشرات الجرحى، والخديو قد أمر رئيس النظار بإصدار الأوامر لجميع الألايات بوقف الإصلاحات في الطوابي في الإسكندرية.

قال عبد العال حلمي: لقد أرسل سيمور لطلبة باشا في شأن وضع المدافع وتجهيز الدفاع وتوعد بالضرب!

فقال عرابي باشا: وبمَ أجاب طلبة باشا؟

فقال عبد العال حلمي: رفع إلى أفندينا الخديو هذا الوعيد، فأمر بانعقاد مجلس النظار.

قال عرابي باشا: إذًا هيا بنا.

مرت عدة ساعات بعدها جلس الخديوي محمد توفيق رئيسًا لمجلس النظار، فقال عرابي باشا: إن طابية رأس التين ليس بها أية إصلاحات وأن وعيد سيمور ليس له أي نصيب من الصحة، وقد أكدت لرئيس النظار ذلك.

فبدا الخديوي والنظار مقتنعين.

أمر الخديوي بكتابة رد على تهديدات سيمور. فأرسلوا إليه برسالة أكدوا فيها بطلان ادعاءاته وطالبوه بالتحقيق من صدق قولهم بنفسه.

وعندما ذهب الضابط إلى الجنرال سيمور وقرأ خطابهم قال للضابط إن مصر بعيدة عني لأن عرابي يحول بيني وبينها، إذا لم يُسَلم لي الطوابي سأضرب القلاع والحصون فورًا.

عاد الضابط كالمرجل إلى عرابي باشا بهذه التهديدات، فعقد مجلسًا حضره الوزراء والنواب والأعيان والعلماء والمشايخ، لكن الخديو كان قد عاد إلى الإسكندرية وقد أرسل بعد تفاوضه مع سيمور بأوامره إلى عرابي باشا أن ينفذ طلبات الجنرال.

فتباحثوا في الأمر وقرّ قرارهم على التصدي لهذا العدوان.

أرسل عرابي باشا إلى رجال البحرية في الإسكندرية وفرق الجيش يأمرهم ألا يبادلوا الأسطول إطلاق النيران حتى يضرب الأسطول خمس طلقات ولما أعيته الحيلة في تجنب الحروب، نادى في القطر كله بالاستعداد لخوض حرب عارمة، وبث رجاله في كل مكان يشعلون فتيل الحماس في نفوس الشعب، وقد وقف النديم خطيب العرابين في ميدان الرمل يقول لأهل الإسكندرية: إن مصر تشهد غارات الأعداء الزنادقة، وإن مصر لهي الكنانة فكونوا سهامها، الذي يلقى العدو ويقاتله ثم يستشهد فقد ضمن الله له الحور العين والجنات، والحياة الباقية خير من الفانية، أيها المصريون ألا ما أجمل أن يموت الإنسان في سبيل وطنه، هؤلاء الفرنجة الصليبيون جاءوا اليوم ليجددوا حروب الصليبية الفاجرة الغادرة، جاءوا إلى أرضنا لأنها تفيض لبنًا وعسلاً، وإن الرجل الذي يسمح للعدو بدخول بلاده، ونهب خيراته، وقتل إخوته، وانتهاك حرمته، واغتصاب زوجته، لهو رجل ديوث النار مثواه، وهؤلاء الغزاة لو فررنا من أمامهم أو سلمنا لهم، فهل سيتركون العباد والبلاد؟ بل يمحقون الجميع، هم يحسدوننا على كل شي، فقفوا أمامهم، اللهم عليك بأعدائك أعداء الدين، اللهم شتت شملهم وفرق جمعهم، واجعل كيدهم في نحورهم.

ثم أخذ يحس الناس على التطوع للجهاد، والخديو يرسل الجنود والحراس إلى الناس يدعونهم إلى المهادنة وترك عرابي يواجه وحده مصيره، ويحاول نشر روح الهزيمة والفرقة بين أفراد الشعب.

تأهبت الجموع من القاهرة للحرب في الإسكندرية، واندس حسن وسط الجموع وقد أخذته الحمية للدفاع عن مصر بعد أن فهم أن الإنجليز جاءوا يقتلون المصريين وينهبون خيراتهم.

لكنه عاد وتذكر أنه سيترك سيدته بلا خادم، وجد الشيخ محمد عبدة يخطب في الناس ويحثهم على الجهاد، فاقترب منه وسمعه يقول: إن الرجل الذي يتخلى عن الوقوف ضد الأجانب اليوم، فهو خارج عن دينه مفارق للجماعة، برئ منه الإسلام، والوطن يلعنه، هذه بلادكم دافعوا الأعداء عنها، اكتبوا النصر ولو بدمائكم، قُدموا فلذات أكبادكم إنهم جاءوا لإذلالنا لا تفروا عند لقائهم، وسوف يثبت الله الذين ينصرونه، ويؤيدهم بجنود من عنده، ولا تغتروا بقوة الأعداء فإنكم تحسبونهم جميعًا وقلوبهم شتى ؛ وهذا هو سيمور يتعجل بالضرب حتى لا يأتي جنرال آخر سيأتي قريبًا ويصبح هو تابعًا له، هم شتى وأفئدتهم هواء حاربوهم وإلا فالخزي في الدنيا والآخرة.

خشي حسن مغبة تهديدات الشيخ فقال له: يا شيخ محمد عبده لي سيدة عجوز أقوم بخدمتها، ولا أحد لها غيري، أتركها وأذهب للجهاد، أم أمكث أخدمها؟

فزمجر الواقفون، وقال أحد مشايخ الأزهر: تبًّا لك من رجل منافق، مصر كلها في حرب وأنت تخشى على سيدتك؟

فأخذ الناس ينالونه بنظراتهم وهمساتهم. ولكن ترك هذا السيل كله وتعلق ناظراه بالشيخ محمد عبدة فرآه يحملق في عينيه، كأنه يستشفه صدق قوله حتى قال له: نعم يا فتى إن مصر كلها اليوم في حرب، لكن مصر أبناؤها كثيرون يدافعون عنها الأعداء إن لم يكن لسيدتك سواك، فازجع إليها، فإن خدمتك لها جهاد.

فزمجر المشايخ وبعض الواقفين، فاستطرد: هكذا ورد عن الرسول عليه الصلاة والسلام.

فقال شيخ ذو لحية: لكن الحرب قد وجبت ولابد من التصدي لها بكل ساعد والموقف خطير!

فقال الشيخ محمد عبدة: حروب الرسول كانت أشد وأخطر من حروب اليوم، هذا هو ديننا على وجهه الصحيح، ولو ذهبنا جميعًا للحرب فمن يزرع ومن يحصد، ومن يعالج الجرحى، ومن للنساء من بعدنا؟ بل القادرون فقط.

فاقتنع الناس بحسن بيانه، وتهللت أسارير حسن، وسكن حتى عادوا لأخبار الأعداء والناس يتزاحمون كالموج الهادر.

ثم أخذ يخطو نحو بيت سيدته، فرأت عيناه مركبة عظيمة وجند كثيرون حولها، رآها تسير الهوينى لشدة زحام الناس، فقال لأحد جنودها: مركبة من هذه؟

فقال له الجندي: مركبة محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب.

قال حسن: إلى أين يذهب؟

قال الجندي: إلى الإسكندرية!

فقال حسن: ليجاهد سيمور؟

قال الجند: الخديو أمره بالحضور إليه.

قال حسن: لكن العربة تمضي ببطء!

فقال الجندي: ألا ترى الناس كثيرين؟ لكن عندما نبتعد عنهم ستسرع.

فقال حسن: لمَ لا يسافر بالقطار؟

فقال الجندي: قطارات السكك الحديدية لا تسير إلا بأمر من العرابيين والباشا لا يستأذن هؤلاء.

ثم قال الجندي لحسن: تعال معنا وانظر إلى سرعة هذه العربة إنها صنعت في أوربا.

فقال حسن: هل ستهرولون وراءها إلى الإسكندرية؟

فقال الجندي: كلا..... سيرجع بعضنا.

وظلا يتحدثان حتى وصلا إلى نهاية العمران، فإذا بعربة فاخرة تنتظر هناك، فنزل سلطان باشا وصافح رجلاً عالي الهمة، طويل القامة، ينظر إليه بشموخ فقال سلطان باشا وحسن يسمعه: مرحبًا بك يا بروفيسور بالمر في أرض مصر!

رد الآخر بفتور وقال: إلى أين تتجه سلطان باشا ؟

قال سريعًا: إلى الإسكندرية.

فقال له: لماذا؟

قال: كما أمرني أفندينا ولي النعم الخديو توفيق.

قال له: أنا جئت إلى مصر في مهمة أعلم أنك تعرفها، فهل تظن أنه سيسهل علينا رشوة الجنود في جيش عرابي ورشوة الناس؟

قال: الجنود والناس؟ الجنود يحبون المال ويخافون من الحرب والموت، والناس لا يخونون، لكن العربان يفعلون، أما إذا أردت تحقيق خيانة كبرى لعرابي وجيشه، فلابد من وجود كميات كبرى من الجنيهات التي لا يملكها عرابي، فيتركونه يواجهه مصيره، فالجنيه تعطيه لأعظم شارب يخر لك راكعًا، وملعون عرابي ومن معه!

هز الرجل رأسه كأنه يقتنع ثم قال: كم نعطي لهم بحسب رأيك؟

فقال سلطان باشا: بحسب رأيي هم أوساخ لا يستحقون شيئًا لكن نفرق عليهم بحسب ما معك من أموال.

فقال بالمر: معي ثلاثون ألف جنيه.

فضحك سلطان باشا وقال، وهل ستبُاع مصر كلها بهذا المبلغ فقط؟ أين حقي يا بروفيسور؟ إن مصر مليئة بالخيرات يكفي قنال السويس.

فضحك وقال: هذه الأموال نفرقها على العُربان، أما أنت يا باشا ورجالنا الأوفياء فلكم ما تشتهون.

فضحك الباشا وقال: لكن لابد من مثيلها للضباط حتى يتركوا عرابي عند الوقت الصعب، اشتروا دماء الجنود الإنجليز بالمال.

فقال بالمر: لهذا أرسلتني إنجلترا، لكني لا أتوقع أن يخون الضباط عرابي.

فهزيء سلطان باشا وقال: لقد أحسن الخديو باختياري لهذه المهمة نعم الضباط هم الأصلح، وهم لا يعرفون الوطنية، ولا الولاء إلا لمصالحهم الخاصة، وهم يرهبون بريطانيا العظمى، سنعطيهم أموالاً وقت الحرب، وترقيات بعد الحرب، فماذا يعطيهم عرابي؟

ثم أخذ الرجل يفكر قليلاً ثم قال له: صدقت سلطان باشا صدقت ثم صافحه وانصرف.

عاد حسن مع الجندي وقال له: لو كنت أملك سلاحًا لقتلت هذا الخائن، باع الكنانة بالمال، ألا يعلم أن ما عند الكنانة خير من المال؟

فابتسم الجندي وقال: كنانة؟ ما معنى الكنانة يا رجل هم يتحدثون عن مصر!

فقال حسن: أنت لا تعلم أن الكنانة هي مصر ولو ماتت الكنانة تقوم القيامة.

فقال الجندي: وهل تموت مصر؟ هي أرض ومياه وسماء وناس يعيشون عليها وحيوانات، فهل يموت كل ذلك؟

فاستحضر حسن مرأى سيدته وقال بهدوء: تقول ذلك لأنك لا تعرف الكنانة، الكنانة هي اليقين، وهي النور، هي الحياة، هي الإيمان كله، الكنانة لو ضاعت يضيع كل شيء، والباشا يريد أن تضيع ليأخذ المال وما عندها خير من المال.

فقال الجندي: هذا كله، فما الذي عندها؟

قال حسن وهو يتوقف عن المشي: يكفيه أن ترضى عنه ليدخل الجنة، هل عرابي باشا يأخذ الرشوة، عرابي باشا يحب الكنانة، وسيقتل الأجانب ويعيد الأرض، نعم! إن عرابي باشا يحب الكنانة، أنت جندي لا تعرف شيئًا فقال الجندي محتدًا: وكيف عرفت كل شيء وأنت مجرد خادم صعلوك لا قيمة لك؟

فقال حسن متحمسًا: الكنانة علمتني أن أحبها، وإذا أخلصت في حبها علمتني كل شئ، أنت لم تستمع إليها وهي تتحدث عن أجدادها العظماء، أنا استمعت إليها.

ضحك الجندي كثيرًا وقال وهو يودعه: استمع إليها كثيرًا لعلها وحي.

قال حسن مؤمنًا: نعم هي وحي، أليست الكنانة!

عاد إلى سيدته فوجد عدة عربات، وجندًا كثيرين في الشارع، فدخل المنزل، فاستوقفه جندي وقال له: من أنت يا رجل وأين تريد؟

فقال حسن: هذا هو منزل سيدتي، وأنا خادمها.

فأفسح له مكانًا فدخل إلى حجرتها فوجد عرابي باشا يجلس على سرير سيدته وهي غارقة في فراشها تبكي وسمعه يقول لها: ماذا أستطيع أن أفعل سوى الحرب؟ الجنرال سيمور بدأ في ضرب الإسكندرية، والخديو الخائن انحاز إليه.

قالت وهي تبكي: هل خارت قواك؟ هل تخشاهم يا عرابي باشا؟

فقال متحمسًا: أنا أقوى منهم، والمصريون معي في كل مكان، والإنجليز يستطيعون حربنا وهم في البحر لأنهم يملكون أعظم أسطول بحري في العالم كله، لكنهم عندما ينزلون إلى البر سيجدون بأسنا شديدًا، لكن سأضطر إلى فراقكِ حتى انتهى من هذه الأمور، أقول لكِ يا كنانة لقد فكرت في اصطحابكِ معي إلى الإسكندرية، لكن خشيت أن يمسّكِ أذى.

فقالت: إن الأذى قد اعتمل في وجودي من جديد، وكان قد تملكني منذ سنين!

فقال: ممَ تخشين اليوم؟

قالت: أن تكون صلاتي بأجدادي العظماء مبتورة، اسمع يا عرابي أنا امرأة عجوز شمطاء، ماء الشباب قد غاض من وجهي، وعروق القوة قد اندثرت، ولكن لي جدود عظماء، كنت أود أن أجدد لهم نسلهم من رجل عظيم مثلك، لكنك ضعيف الهمة، خائر القوة، متردد، لا تملك إرادتك، حقًا أنت شجاع، لكن بلا سياسة، لست تقدر على الخداع، لن ينفعك ذلك، اغدر في ميدان السياسة، كن شجاعًا في ساحة الحرب، أحبك!

أنا إن أحببتك فإن ذلك سيكون بفضل حبك لي، ولن أرضى عنك حتى تعيد لي مجدي.

قال: البلاد تمر بعواصف عظيمة، تحتاج إلى الإصلاح كما قال الشيخ محمد عبدة، كنت أقول عنه إنه مثبط، لكنه اليوم يؤازرني بفهمه ورأيه السديد، لقد نفعني كثيرا، سأسافر للحرب، فهل أعد نفسي بالزواج بكِ؟

قالت بقوة: عرابي إن مهري هو رأس الخديو إن جئت به أعطيتك مني ما تشاء.

قال لها: الخديو رأسه لا تعطى مهرًا للنساء، لكن كل بيت وكل مصري اليوم يطلب ذلك.

قالت: هل تحسبني مشلولة حقًا؟ أو هل تحسبني عاقرًا، أنا أفهم طلبات الرجال، أنا أشهى امرأة يا عرابي، اقترب مني، ذب في حبي، أغلق هذا الباب وتعال أقول لك همسًا.

فنظر إليها قويًا وظل جالسًا، فإذا بحسن يتنحنح، ويغلق الباب بهدوء، فقال لها: لقد أغلق خادمكِ الباب فقولي ما تريدين.

فقالت: ادن مني.

دنا منها، فتورد خداها توردًا شديدًا ولمعت عيناها بالحب، وبدت شفتها في حركة جاذبة، ثم مدت يدها إلى رأسه وخلعت عنها الطربوش، وطوحت به بعيدًا، فمال عليها، ثم أخذت بيدها الأخرى يده اليمنى واقتربت بهما من فمه فلثمها، وانهال على صدرها يقبلها وهي تقول له: إن عطائي غير محدود، فتحشرجت في جوفه الكلمات وقال لها: أنا أحبك وأعلم بأني سأسعد بقربك.

قالت بإغراء شديد: هل رأيت مني شيئًا؟

أحس أن حرارة الشمس استوطنت قلبه فانخلعت منه حبات العرق كأنها حبات لؤلؤ قد زنيت جبينه، لكنها أكسبته رائحة جعلتها تنفر منها فانتبه لنفسه، وقال لها: ما بالك تبتعدين وقد بلغت بي الغاية؟ عدت لا أحتمل فهل أجئ بالشيخ الآن؟

قالت: لا ...لكن رائحتك سيئة مقززة، لكن إن عدت إليّ برأس الخديو والخونة المرابين ستجدني أشهى لك من ذلك.

قال: سأذهب وأستحم وأعود قبل السفر.

قالت: كلا...... بل اذهب واستحم في مياه البحر الأبيض وأغرق فيه جند سيمور وعُد إليّ، أنا في انتظارك.

قال لها بحرارة ووله: كلا.... ما أحتمل فراقك، هل تعصين أمري في هذا، أنا رهين أوامرك، لكن أنقذي جسدي من طغيانك، أشبعيني منك، إني أحبك، وأشتهي جسدك هذا الآن، ولا صبر لي على الفراق

فنظرت إليه نظرة استجمعت فيها كل معطيات الله للأنثى وقالت: كُن عظيمًا، ولا تهزك شهوة إلا شهوة النصر على الأعداء، وعُد إليّ.

لكنها أوحت إليه بالاقتراب من وجهها حتى أخذت الشفاه تلامس بعضها فأحست كأن بركانًا يخرج من شفتيه فبادلته الحرارة، فازدادت الجاذبية، وطغى الحب، وذابت الإرادة وانكب عليها كلية يقبلها وهو يقول بعد أن ابتعد عن مذاقها الحلو: هنا الجنة، فارتع فيها يا أحمد، أنا يا كنانة لا أجد متعة إلا في حبكِ، وفي قربكِ، كل حب دونكِ زائف، وكل متعة سواكِ ضلال، سأعود إليكِ برأس الخونة كلهم.

فقالت بهيبة ووقار: وأنا أباركك.

فتعانقت النظرات طويلاً، حتى ما عادا يحسان بالزمان حولهما.

ثم سمعا جلبة في المنزل فانزعجا وود عرابي باشا لو يقبلها تارة أخرى ليسكب في جوفه من طاقاتها المزيد، لكنها تنحت إلا عن يدها، فلثمها وهمّ بالخروج فقالت له: اعلم أنني الحقيقة في الحياة، وليست سواي نساء وليست سواي حقيقة شهوات، فعُد إلىّ غانماً، إني أشتهيكِ.

كظم كلماتها في جوفه كأنه يختزنها في الأحشاء، ثم تعالت الجلبة في الخارج، ففتح الباب وخرج فإذا ببعض الضباط يقولون: لقد أتممنا الاستعدادات للحركة، ونحن جاهزون للسفر.

فقال: نعم هيا نتحرك لصدّ هذا العدوان، وليكن معلومًا أن هدفنا هو فصل الخديو عن سيمور، وتجنيب الإسكندرية الخسائر.

فتنحنح حسن وقال: يا عرابي باشا لقد سمعت محمد سلطان باشا يتحرك مع رجل أجنبي اسمه بالمر جاء بثلاثين ألف جنيه لرشوة بعض الناس حتى يتركوك وحدك، فاحذر الخيانة. فنظر إليه وهزىء ثم قال: الخيانة.... هل يخون المصريون... من أجل المال؟ لا.... لا يمكن أبدًا، هذا غير صحيح.

ثم أومأ إلى الضباط فخرجوا جميعًا.

دخل حسن على سيدته فوجدها غارقة في شجونها فقال لها: سيدتي إن رجال الدولة يخونون عرابي باشا وهو لا يصدقني، إني أخشى عليه هذه الخيانة.

فنظرت نحوه وقالت: لقد أقبل الليل يا حسن فائتني بشمعة. خرج ثم عاد بعد مكث غير قليل بضوء وقال: هل أنا أخطأت عندما قلت له عما سمعته يا سيدتي؟ إني أحب عرابي باشا وهو يحبك، وهو طيب!

قالت: قد طلبت منه أن يقتل الخديو لأتزوجه وأعطيته قبلة يتزود بها على هذا العزم، لكنه غير أكيد، أنا أحب هذا المصري الأصيل.

ففغر حسن فاه وقال دهشًا: أعطيته قبلة؟ هل ستقوم القيامة، أم سيرسل الله نيرانًا تحرقنا؟ هل عرابي يستحق قبلة من سيدتي وأجدادك هم العظماء؟

فقالت: نعم يا حسن، يا ليتني كنت أستطيع أن أعطيه المزيد.

حملق فيها ولم ينبس فاستطردت: لكنني خشيت أن ينسى ما هو موكول إليه، يركن عندنا، هل أنت واثق أن سلطان باشا سيخون البلاد يا حسن.

أجاب برأسه علامة نعم!

قالت: اذهب خلفه، وقل له ثانية إن سيدتك تتشبث به اليوم فلينقذني!

قال متعجبًا، الآن يا سيدتي وقد دخل الليل، وتحرك الجنود إلى الإسكندرية؟

قالت: نعم! سافر وراءه وراقبه جيدًا!

قال: ومن يخدمك؟

قالت: هذا جهاد ألا تجاهد في سبيلي؟ إن عرابي حبيبي وأنا أحبه، وأريدك أن تحارب معه.

قال: لكن الشيخ محمد عبدة زعيم الإصلاح قال إن عليّ أن ألزم خدمتكِ حيث لا خادم لكِ غيري.

قالت: كيف سأعرف أخباره؟

قال: من الجرائد!

قالت هادئة: ومن يقرأها؟

قال: أسمعها من أفواه الناس وأبلغها لكِ.

قالت وهي تهم بإطباق حاجبها: نعم

قام حسن وأطفأ الشموع فبات المكان موحشًا.

الفصل السادس

عسكر عرابي باشا وجنوده في كفر الدوار، وقد رفض سيمور كل ما عرضه عليه عرابي باشا، وفور وصوله جاءه ضابط من الخديو سلّمه رسالة يدًا بيد، فأمر باجتماع عاجل، فقال له أحد الضباط: جناب عرابي باشا ناظر الجهادية هذه مراسلة ذات شأن عظيم، وليست تقضي أن يطلع عليها الجميع فاجعلة مجلسًا لكبار الضباط.

فنظر إليه بابتسامة عريضة وقال: ما كنت لأستبد وأنا الداعي إلى الدستور والشورى.

ثم فض الرسالة بهدوء وأخذ يتلو عليهم بصوته الجهوري: سعادة عرابي باشا ناظر الحربية في معسكر كفر الدوار " إنك تعلم أن الأميرال الإنجليزي لم يرد حرب مصر، وإنما أطلق المدافع على الطوابي بسبب ما كان جاريًا من التجهيزات كما أنذر به، وقد أعلنا أنه يجب إعادة العلائق معنا وأنه مستعد لتسليم الإسكندرية لجيش مطيع، فإن لم يكن فإلي جيش عثماني، وقد قرر مؤتمر الأستانة أن للسلطان وحده حق التدخل بقوة السلاح في المسألة المصرية، فعليك أن تحضر مع رفاقك إلى رأس التين للمداولة في ذلك وآمرك بالكف عن التجهيزات التي لا فائدة منها بعد الآن.

هاج الضباط وقال علي فهمي: عرابي باشا إن الخديو قد انحاز للعدو وخان مصر، فعلينا عصيان أوامره

فقام النديم وقال: إنك لم تر الجموع الفارين من الإسكندرية بعد ضربها، ١٥ ألف إنسان قد هجروها وقد تركوا ديارهم

وبيوتهم ومتاجرهم ومصانعهم، تركوها وفروا بأرواحهم، عند ترعه المحمودية قد رأيتهم يتقاطرون حول الماء، كأن ليس معهم ولا حتى كسرة خبز، الخديوي أجاع الناس بعد شبعهم، وأفزعهم وروع أمنهم ثم يقول ذلك، لا والله أبدًا.

فنظر إليه عرابي باشا وقال: قد رأيت ما تحدث عنه وأنا قادم إلى هنا، رأيت الشعب قد طرد من بيته وكان الحر شديدًا غيم من الغبار قد سدا الأفق والنسوة يبحثن عن أطفالهن ورأيت المشاجرات والويل والبكاء والخوف والأنين، كل ذلك يعلو حتى يصم الأذان، ورأيت توفيقًا قد خان، فهل ترون أن نقطع رأسه مهرًا للحرية؟

فصاحوا جميعًا: نعم، افعل!

فقال: إذن علينا أن نُعد العدة لذلك، وأنا سأرد على الخديو فوقف محمد عبيد قائلاً: فداك نفسي يا عرابي، لا تفعل، هذا الحقير لا تلتفت إلى أوامره ونواهيه، لقد انقلبت الدنيا على سيدته إنجلترا، وفي الهند قد سمعوا بما فعلناه وسوف يثورون على الاحتلال الإنجليزي فهل ستحارب إنجلترا العالم كله؟

قام علي فهمي وقال: نعم يا عرابي الحق كذلك، لا تخاطبه ولا تجبه إننا نستمع إلى إخواننا باشوات مصر وهم يقرءون الصحف الأوربية ويقولون إن فرنسا ستتدخل من أجل إنقاذنا من إنجلترا.

فقال محمد عبيد: لا.... فرنسا ذئب لن تخلّص فريسة من ذئب، بل نحن المصريين سنخلّص أنفسنا فقال عبدالعال حلمي: لا تشطط يا عبيد، إن فرنسا ستساعدنا صحفهم تقول ذلك.

فقال عرابي باشا: وهل قرأت ذلك في صحفهم؟

فأشكل عليه ثم قال: أنالا أفهم اللغات الأجنبية !

فقال عرابي باشا: وهل أحد يفهمها هنا؟

صمتوا جميعًا فعاد يقول: إن نحن عزمنا على ذلك فلا نفعل إلا الدهاء.

ثم خرج إلى غرفة خاصة به، وأخذ ورقة وقلمًا وأخذ يكتب رسالة بعث بها إلى الخديو مع ضابط الخديو، فلما خرج بها رآه الضباط هموا بالقبض عليه، لكن عرابي باشا أنقذه منهم لكنه لم ينج من سباب وقذف.

لما دخل الضابط على الخديو وجد عنده الأميرال سيمور يباحثه في أمور الخراب الذي حل بالإسكندرية، فرأى الخديوي يومئ إليه يتوارى.

فلما خرج سيمور دخل الضابط وقال للخديوي: عرابي باشا سألني ما مصير الإسكندرية بعد الضرب يا أفندينا.

فقال الخديو محتدًا: تتحرق، ستين سنة، فلتحرق المدينة كلها ولا تبقى فيها طوبة على طوبة، حرب بحرب، كل ذلك يقع على رأس عرابي وعلى رؤوس أولاد الكلب الفلاحين، وسيذوق الأوروبيون الملاعين عاقبة هروبهم كالأرانب.

ثم قال للضابط: هل أعطيته الرسالة؟

فهز الضابط رأسه بالإيجاب ثم قال: نعم وأعطاني الجواب.

فأخذها الخديو ثم أعادها إليه وقال: كلمات الفلاح.

فأخذ الضابط يقول: جناب أفندينا محمد توفيق خديو مصر بعد التعظيمات أقول لكم "إن الأميرال إنما أطلق المدافع بعد التأكيدات من الوزارة ومن سموكم بأنه لا تجهيزات ولا تحضير، وقد عددنا جميعا (وسموكم معنا) أن إنذاره بالضرب إهانة لمصر، وإعلان لحربها بلا سبب، وقد قذف قنابل مفرقعة على الأملاك حتى قتلت ودمرت كثيرًا أصبحت إنجلترا محاربة لمصر، وسموكم يعلم أن المدينة قد أخليت من رعيته البائسة، وهجر الناس أوطانهم،

وتشرد الأهالي شر تشرد، ونكبت الإسكندرية فكيف تكون هناك مداولة؟

سمو الخديو أنت خنت مصر، وأنت الحاكم، من الآن لا حكم لك، ولا أمر علينا، قد نبذنا طاعتك، فأسلك طريق الشياطين، وارفل تحت أقدام أسيادك الإنجليز."

التوقيع / أحمد عرابي باشا ناظر الجهادية.

فلما أتم الضابط القراءة فتطاير الشرر من عيني الخديو وأخذ صدره يعلو من الغيظ ويود لو انفجرت منه القذائف لتحرق عرابي فقال بغضب جم: عرابي ينبذ طاعتنا، عرابي معزول، أيها الضابط الحقير، قل لجميع تلغرافات مصر والجرائد عرابي معزول.ثم قام من مجلسه وقال: سردار باشا، تعال حالاً فجاءه السردار ووقف ينظر إليه وجلاً فقال الخديو: عرابي معزول، أنا آمرت بهذا.

فقال السردار: لكن أفندينا، الجند مع عرابي والجيش كله لا يعصيه فكيف تعزله؟

فقال الخديو: أنا لا أخشى المصريين جنود مصريين فلاحين حمير، لكن أنا معي جيش إنجلترا العظمى، عرابي في سبتمبر الماضي كان معه الجنود والناس، لم يكن معي أحد لكن أكرههم، أكره مصر كلها ولا أحب إلا سلطاني، قد سلبني عرابي سلطاني معي إنجلترا.

قال السردار: لكن الناس ترى انحيازكم للإنجليز ضد مصر، فإذا أردت عزل عرابي فاجعل السلطان يأمر بذلك، فرجال الدين يخشون السلطان ولن يستمعوا لعرابي وهم يؤثرون على العامة، تحدث فُرقة وتنتهي الأزمة.

فقال الخديوي: نعم.... هذه مشورة صحيحة، أرسل إلى اسطنبول تلغرافاً لإصدار فرمان بعصيان عرابي ثم ترك السردار ودخل

حجرته الخاصة.، فخلع عنه بعض ملابسه ووضعها على الحائط وأخذ ينظر إليها ويتأمل الملابس والنياشين وقال: هذا هو سلطاني أخذه عرابي وقال أقدم لكم مطالب عادلة، سيذوق وبال أمره، سأضرب ظهره بالكرباج، وأسوق المصريين إلى المذابح، وأقتلهم جميعًا عندما يعود إليّ سلطاني من عرابي ثم أضربه بالرصاص.

أنا أكرهك يا عرابي.... ثم أمسك بالمسدس ونظر في المرآة وقال: أنا خديو مصر، لا يجرؤ فلاح أن يعصى أمري.

فخيل إليه أن عرابي قادم نحوه مشهرًا سيفه، كما حدث يوم القلعة فقال له الخديو: أغمد سيفك جندي، فلم يجبه عرابي، وتوجه نحو ملابسه فأخذ النياشين وقطعها، فقال له الخديو: عُد مكانك جندي.، سأضربك بالرصاص، لكن دخل كوكسن فجأة وأخذ المسدس وأقصى عرابي بعيدًا فزمجر الخديو وقال: لن يبقى عرابي حيًا، لا.... لن يعيش، أنا أكره عرابي، أكره مصر، أكره كل شئ.ثم أطلق عدة طلقات من المسدس فأحدثت دويًا، فدخل الجند والخدم إليه في حجرته، فوجدوا المرآة مهشمة وما يزال يطلق الرصاص.

فلما انتبه لهم نهرهم جميعًا وطردهم، ثم أنبطح على الفراش ملقيًا بأثقال جسده على السرير وهو يقول: سأدمرك يا عرابي، سأقتل المصريين جميعا ؛ هل أنتم أعظم من المماليك ؛ هؤلاء إخواني الإنجليز سيقتلونكم يا أولاد الكلاب. دخل عبد الله النديم إلى أحمد بك عبد الغفار في ثكنته وقال له: العُربان يدخلون الجيش المصري ؛ والمتطوعة منهم كثير.

فأجابه هادئًا: نعم، يكثرون عددنا، والإنجليز لا يصل عددهم إلى خمسة عشرة آلف جندي، أما نحن فنستطيع أن نجند مليون جندي يصدون جيوش بريطانيا.

فقال النديم: لكن لا قيمة لهم، وأنت رجل جرب وتعلم أنه لا أهمية للعدد إزاء العدة والتدريب.

فقال له: بل العدد هو عمادنا، إنها حرب ولابد من استخدام كل سلاح يمكننا استخدامه.

فقال النديم: لكن بعضهم خونة، أنا لا أخاف الجيوش الغازية قدر ما أخاف هؤلاء.قال أحمد بك: عرابي باشا رجل زكي وحكيم ويعرف مصلحة الحرب، وهو ناظر الجهادية..

فضحك النديم خفيفًا وقال: لقد أصدر الخديو أمرًا بعزل عرابي باشا عن النظارة.

فصمت أحمد بك ولم يحر جوابًا.

فاستطرد النديم: ونشرت الجوائب فرمان السلطان العثماني ليندد فيه بعصيان عرابي باشا ويأمره بالكف عن الاستعداد، وعلمت اليوم أن إنجلترا اشترت مليون نسخة من هذا الجر نال حتى تنشرها في بلاد الهند.

فقال أحمد بك: لكن السلطان يرى الإنجليز يحتلون مصر فليرسل إليهم عسكرًا يصدهم!

فضحك النديم وقال: ألا تعلم يا جناب الضابط أن الأغا المكلف بقصور يلدز قد أفتى مولانا السلطان آلا يرسل الجيوش إلى مصر خشية انتقام الدستورين، وقال لجلالته إنه لا يرى ضرورة لذلك، فامتنع السلطان وأرسل بفرمان العصيان لرجل مصر وزعيم ثورتها.

فقال أحمد بك: وما العمل اليوم؟ الخديو والسلطان والإنجليز الخونة ضد عرابي وليس عنده عدة كافية لخوض الحرب ضد هؤلاء جميعًا؟

قال النديم: زد على هؤلاء أن البلاد ينخر فيها السوس، مُرابون خونة، في كل مكان، لله درك يا عرابي، أتمنى من الله أن

ينصرك أنا سأقف في كل مكان وخطيبًا وأقول للناس أن الخديو خان البلاد، والسلطان اتبع هواه، وعرابي وحده هو المخلص فلنتبعه.

ثم خرجا إلى مجلس عرابي باشا، ووجدا محمد عبيد قريب من معسكرة فقال لهما: هو داخل هذا المعسكر، لا أعرف أن أتكلم معه هو مهموم جدًا.

ثم جاء جندي إلى عبيد وقال: خطاب من القاهرة إلى عرابي باشا فأخذه، ودق على الباب كثيرًا، حتى سمع صوتًا يأمره بالدخول فدخل، وأعطاه الخطاب ثم عاد إلى رفاقه، وتباحثوا في الأمر فأخذ عرابي يقرأ "جناب عرابي باشا وزير الجهادية، من الشيخ محمد عبده ومجلس عمد ومشايخ وعلماء مصر ونوابها، بعد التفخيمات والتعظيمات، فلما نما إلى علم المصريين أن الخديو أمر بعزلكم، وأن السلطان أصدر فرمانًا بعصيانكم اجتمعنا وتباحثنا في الأمر، ولما رأينا أنكم مصرون على صد عدوان إنجلترا الباغية، وأنكم ثابتون ثبات الجبال، راسخون كالطود فإنّا نعلمكم أننا جميعًا ننبذ طاعة الخديو الذي انحاز إلى عدونا وخان البلاد والعباد، وكذلك لا نرض عن فرمان السلطان، فجاهد، ونحن معك، الله ينصرك يا عرابي!

انبسطت أساريره وهو يقرأ الخطاب، وجلس يتحدث إلى نفسه: اليوم باتت في مصر ثورة، حقًا أنا زعيمها، لكن لابد من مواصلة الجهاد، علينا بالثبات، أين أنتِ الآن يا كنانة، هل تعرفين أني أخوض حربًا مع إنجلترا العظمى والخديو وحاشيته والخونة المجرمين، حتى السلطان نفسه؟ لكن المصريين يؤيدون جهودي، بورك فيهم سأعود إليكِ برأس الخائن كما طلبتِ، آه منكِ إن الرجال عبيد طلبات الجميلات! الحمد لله أن توافقت رغبات قلبي مع رغبات الأمة، حقًا لم يَعد لك يا توفيق حق في حكم مصر، أنت تكرهها وتكرهنا جميعًا وتستعبدنا، ليتني قتلتك يوم القلعة،

ليتني سجنتك ولم أجعلك ترحل للإسكندرية، وأنت تتنقل من الرمل إلى المنتزه ورأس التين وترتمي في أحضان الإنجليز كالكلب، لأقتلنك وأثأر لرجال مصر، لم تضع الفرصة.

سمع طرقًا متواصلاً، فانزعج ثم قال: ادخل.

فإذا بمحمود سامي البارودي يدخل عليه متشحًا بملابس الحرب الكاملة، وهو يلهث قائلاً: إن الإنجليز قد أخذوا يزحفون للحرب نحونا.

وقف عند سماعه النبأ وقال بصوت قوي: سنقبرهم في كفر الدوار، ونعود بهم إلى البحر ونغرق الباقين منهم هناك ونطيح بالخديو ومن معه من الخونة.

قال البارودي: أرسل بعض الجواسيس يقتلون بعض الحاشية أو الخديو نفسه، فإننا إن....

قاطعه عرابي باشا محتدًا: لا.... لا يا باشا، نحن لا نقتل غدرًا ولا نخون عهدًا.

قال البارودي: هي الحرب، والرسول قال: الحرب خدعة.

قال عرابي باشا: لكنه لم يقل الحرب خيانة، وخسة، وأنا أريد أن أقتلهم جميعا قتلة مفخرة في ساحة الميدان لأقدم رؤسهم مهرًا للكنانة، فهل نحن قادرون على ذلك يا باشا؟

قال: نعم نحن قادرون، لكن انبذ الخونة أولاً.

قال عرابي باشا: لا يوجد فينا مصري خائن، أنا أعلم أنكم تتهمون بعض العُريان بالخيانة، لكنهم لن يخونوا إلا الأجانب هل يقتلون المسلمين إخوانهم؟.... كلا.... لا أصدق.... إنها وشايات يروجها الأعداء لتهديدنا، اثبت بارودي باشا، وانفخ نفير الحرب، إنا إن شاء الله لمنتصرون.

دقت الطبول، وزحفت القوات الإنجليزية نحو كفر الدوار بدأت الجيوش تتلاحم، فأثبت المصريون جهداً وثباتًا في القتال أذهلا عدوهم، ولاقى الإنجليز من المصريين قوة وبأسًا رغم ضعف إمكانات تسلحهم، والخسائر زادت وزاد عدد القتلى فخشى سيمور الهزيمة، فانسحب عائدًا إلى الإسكندرية، وسريعًا ما أخذ طريق البحر نحو السويس، فتأهب عرابي باشا لحربهم هناك وقد ارتفعت معنويات الجيش بعد انسحاب سيمور من أمامهم في كفر الدوار.

فأشار عليه الضباط بالمباحثة مع ديلسيبس لردم القنال حتى لا يستخدمها الإنجليز في الحرب بعد ما جاءتهم إمدادات كثيفة ومساعدات من أنحاء الإمبراطورية البريطانية، عندما علموا بقوة جيش مصر وشجاعة عرابي.

وقف ديلسبس أمام عرابي باشا وكبار الضباط، فحيّاه عرابي باشا والمترجم واقف بينهما فرحب به وهش له وأجلسه بجواره فرأى منه استئناسا بمجلسه.

قال عرابي باشا: إن الإنجليز يريدون احتلال مصر، وبلادكم فرنسا كانت تساعدنا وتعدنا بتفويت الفرصة عليها.

قال ديلسبس متحرجًا: إن بلادي لا تستطيع أن تتدخل دون إرادة البادشاه السلطان العثماني، ومؤتمر الأستانة نص على أن السلطان وحده له الحق في التدخل بالقوة، فلو أرتم مساعدات بلادي، أرسلوا إلى السلطان يستنجد بنا ضد إنجلترا!

-150-

قال عبيد محتداً: ألم تعلم أن السلطان قد انحاز إلى الخائن توفيق ضد عرابي باشا وكيف إذن يستجيب لطلباتنا؟

فقال ديلسبس هادئًا: إنها مطالب عادلة، فرنسا حين جاءها بونابرته لم تخرجها إلا إنجلترا بمساعدة السلطان العثماني وإنجلترا إذا احتلت مصر لن تخرجها إلا فرنسا ؛لأن السلطان لا يقوى على

ذلك، خاصة وإنه يحارب روسيا، وفي اسطنبول اضطرابات ضد عبد الحميد.

قال البارودي: سنردم القنال في وجه الإنجليز حتى نعجزهم عن احتلال مصر.

فوقف ديلسبس وكأن شريانًا من قلبه قد نُزع وقال بحدة: القنال لا تستخدم في حروب ضد أية دولة فكيف بمصر؟ إن إنجلترا إذا أرادت حرب مصر أو حتى احتلالها لإعادة الأمن فيها حتى لا تؤثر

الإضطرابات على مصالحها كما تدعي، فإنها وفي هذه الحال لا تقدر على خرق معاهدات دولية، مستخدمة القنال في الحرب.

فقال محمد عبيد: وإن فعلت ذلك فماذا نفعل؟

فرد سريعًا عبر المترجم: لن تحارب إنجلترا جيش عرابي، بل ستحارب العالم كله ولن تستطيع.

فقال عرابي باشا: ومن يضمن لنا ذلك، إنها الحرب؟

فقال: أنا نيابة عن فرنسا ودول أوربا كلها أضمن ذلك لك، إن القنال أعظم من أن تنالها إنجلترا بسوء، ثم إننا نحترم المعاهدات والاتفاقيات الدولية، إنها شركة ملاحة بحرية وليس ممرًا حربيًا.

فأخذ بعض الضباط يمورون، لكن عرابي باشا نظر إلى الجميع، وبدا مقتنعًا، فقال البارودي له وهو يشير إلى المترجم ألا ينقل الحديث: لا تستمع إلى هذا الرجل واردم القنال، ضرب مصر جريمة حقيرة، الخديو وحاشيته قد خانوا البلاد، فهل تحترم إنجلترا معاهدات هي نفسها اخترقتها، ألم تخترق مؤتمر الآستانة؟

فساد صمت وذعر وديلسبس ينظر للجميع بعينين زائغتين، وصدره يعلو ويهبط ترقبًا وانتظارًا حتى قطع عرابي باشا الصمت قائلاً: لن نردم القنال، لقد حفرت بدم شهداء مصر، فلن نردمها.

فتهللت أسارير ديلسبس وقال: وأنا سأتصل بحكومة بلادي لمنع إنجلترا من أية اعتداءات على القنال.

فزمجر بعض الضباط، وتهامسوا، ثم خرج ديلسبس إلى مقر الشركة وهو يعدّهم ويمنيهم!

فقال البارودي: والله إنه كالشيطان يعدنا ويمنينا وما يعدنا إلا غرورًا وباطلاً.

ثم أمر عرابي باشا بالاستحكامات وحشد الجنود وتعبئة الجيش كله.

دخل حسن على سيدته فوجدها تُغالب كلوماتها وتصارع أفكارها، ووجد في نظرات عينيها تيهًا ومجالات شتى للنزاع والصراع فخاف منها قليلاً، ثم استدارت رقبتها الطويلة نحوه ونادته: حسن!

فأقبل تحت قدميها خاشعًا ذليلاً!

فقالت له: كيف وجدت الناس يا حسن؟

فتلعثم وهو ينظر في عينيها وقال: وجدت الأعيان والنظار والمشايخ والجرنالجية مجتمعين ويقولون: الله ينصرك يا عرابي!

ثم سمع دقات متلاحقة على الباب فبهتا، ثم خرج حسن سريعًا لينظر الطارق، فإذا بامرأة منقبة تقف بجوار الباب، وعبد أسود طويل يقول: هذه دار السيدة كنانة؟

فأجابه حسن وهو يتأملها: نعم.

فقالت المرأة: نريدها!

فقال حسن: لِمَ؟

قالت: أنت خادمها؟ قل لها امرأة تريدك.

فتغيب قليلا ثم عاد يقول: تفضلي إليها.

دخلت حجرتها وهي تحملق فيها وتتأمل أساسها ومكوناتها وسقفها وفرشها وملابسها ثم زنت نحوها رنوة طويلة كأنها تتفحصها، فانكمشت الكنانة قليلاً ثم هش لها وجهها وقالت: مرحبًا بكِ يا سيدتي!

فجلست وهي تقول: أتعرفين من أنا؟

قالت: أحسبني لا أجهلكِ ولكني لا أعرفكِ.

فابتسمت عن ثغر حزين ثم قالت: أنا زوجة عرابي باشا هانم.فبهتت قليلاً ثم لاذت بالصمت: فاستطردت طبعًا تعرفين أن عندي أولادًا هو والدهم، وتعلمين أنه يريدكِ زوجة أو عشيقة!

فبان التوتر في عيني الكنانة، لكنها كاظمة تستمع فاستطرد ت ولكن علامَ يفعل هذا معكِ؟ كنت أحسبكِ جميلة كما قيل لي، أو أنكِ ذات مال وجاه، قالوا إنكِ لا تخرجين من داركِ، حسبته لفرط حسنكِ، فإذا أنتِ امرأة شلاء لا قيمة لكِ، فهل تسحرين للباشا؟

فتنهدت بزفرة مكتومة ثم قالت: لقد شرفتِ داري يا زوجة زعيم الشعب وقائد الثورة، هل تغارين على زوجكِ مني؟

فقالت باستهزاء: قبل الآن كنت أغار، لكن اليوم لا، أين أنتِ مني؟ أنتِ عجوز شلاء، أما أنا فإنني شباب وكلي حيوية.

قالت لها: نعم..... لماذا تأتين إليّ؟

فقالت: لأنظركِ، وأحذركِ من الارتباط بالباشا، مفهوم؟

فقالت بحدة: أين الباشا اليوم؟

أجابت بطرف لسانها: في الحرب!

قالت: أية حرب؟

فنظرت غاضبة إليها وقالت: ضد الإنجليز!

فقالت بابتسام: بل حرب من أجلي، ذهب زوجكِ يقاتل لأجل إرضائي، وإن لم يفعل فلن يصل إليّ، إذا كان قد أهداكِ بعض المال مهرًا، فإنه يهديني روحه أو رؤوس أعدائي!

فسخرت وقالت: هل أعداؤك هم الإنجليز؟ إنكِ عجوز شمطاء خرقاء.

فنظرت إليها طويلاً حتى أرهبتها، ثم دخل حسن حانقًا وهو يقول: سيدتي إن هذه المرأة تُهينكِ فهل أقتلها؟ فلم تجبه، فخرج وتغيب قليلاً ثم عاد يحمل ساطورًا، فذعرت زوجة عرابي، وكادت تصرخ لولا أن سمعت الكنانة تقول: حسن! إلزم أدبك، إنها ضيفة.

فقال لها: يا سيدتي، بل هي معتدية، حربها مثل الإنجليز! فازدادت المرأة ذعرًا وحسن متأهب لضربها بالساطور فعادت سيدته تقول: اخرج.

فخشع قليلاً وهو يلهب المرأة بنظراته ثم خرج، منكسًا رأسه حنقًا وغيظًا.

ثم قالت لها: يا سيدتي زوجكِ رجل عظيم، أدرك بحسه المرهف بواطن جمالي، وسر اكتمالي، ووجد عندي ما لن يجده عند غيري النساء، اخرجي إلى بيتكِ غير مهانة، أنا لا أحب التفريق بين المتآلفين، لن يتزوجني زوجكِ.

فقالت ودمع الخوف يكاد يخنقها: لكن إن عاد إليكِ بمهركِ فماذا تفعلين؟

قالت: لا تحتاطي، اخرجي.

فأسدلت نقابها فوارى وجهًا مليحًا صبوحًا، ثم خرجت كأنها تهرول.

دخل حسن حانقًا وهو يتخشع ويقول لها: كان يجب قتلها لو لا إنها زوجة عرابي باشا.

فقالت: فيك ما ليس في عرابي باشا، ليتك مكانه، اخرج وعد إليّ بخبر عن حرب التل الكبير.

فخرج مهرولاً حتى وصل إلى ميدان الإسماعيلية، فوجد الناس يتراكضون نحو نظارة الجهادية، وهم يرون فلول الجند يهربون ويلوذون بالفرار، وبعض الناس يتعقبونهم ويصبون عليهم جام الغضب ثم ما لبث ساعة حتى رأى القاهرة تمور مورًا، والعويل والبكاء يعلو في كل مكان، فأحس أن مصر تندب عرابي باشا ورفاقه ثم ما لبث أن رأى أحد الضباط فوق صهوة جواده يطلب الابتعاد عن الجماهير، فهرول خلفه، ومازال الضابط يعدو بجواده حتى وصل الإعياء بحسن غايته، لكنه ظل مثابرًا، وهو ينادي الضابط قائلاً: قف لحظة ثم اذهب!

فلما وصل الضابط إلى مكان رأى فيه قلة الناس، توقف كأنه يريح جواده قليلاً: فأقبل عليه حسن وهو يشير إليه بيده أن يصبر عليه ريثما يستطيع التفوه، ثم مرت لحظات وعينا الضابط زائغتان لا تستقران على حال والخوف والفزع يملآنهما ثم قال حسن: هل أنت من جيش عرابي؟

فأومأ إليه أن نعم!

فقال: ماذا حدث؟ قل لي يا سيدي. فأنا خادم زوجته! فبكى الضابط قليلا ثم جثا إلى الأرض يضربها وهو يُهيل التراب على نفسه ويبكي وينوح وحسن يتصبر عليه بتجلد شديد حتى هدأ الضابط ثم قال لقد هزمنا الإنجليز، لكن الخونة هزمونا وقتلوا نصف الجيش!

فصعق حسن وقال: ماذا؟

فعاد الضابط يُهيل التراب من جديد وهو يضرب الأرض ضربًا شديدًا، فعاد حسن يتصبر عليه كأن الصبر جبل يحمله.

فقال الضابط: اشترى الإنجليز النفوس بالمال اشتروا نفوس بعض الضباط ورجال التلغرافات الذين أخروا علينا معلومات، فُهزمنا.

فقال حسن: وأين عرابي باشا؟

قال: لا أدري لعلهم قتلوه!

قال: تصف المعركة؟

قال: لا.... ما حدث كان مذبحة، دخلوا علينا عند الفجر، وقتلونا وبددونا، عُربان وضباط إنجلترا، رأيت عبيد بك مضرجا بدمائه قتل غدرًا ليتني قتلت معهم فتركة حسن وعاد مسرعًا، فوجد الناس ملتفين حول كوكبة من الضباط، فاقترب فإذا به يسمع صوت البارودي باشا يقول: عرابي باشا، تغرق الشرقية والقليوبية حتى نعرقل تقدمهم ثم نجمع رجال مصر ونقاتلهم فإما النصر أو الشهادة!

فقال عرابي باشا: عندما يصلون إلى القاهرة سيجعلونها مثل الإسكندرية يتشرد الناس، وتخرب المدينة، ولا فائدة لن نحارب بعد هزيمة الجيش.

فقال البارودي: أنا سأذهب إلى بيتي وإذا أرادوني فهم يعرفون مكاني

فنظر عرابي باشا للأرض والبارودي ينفلت من بين الناس، فقال أحد الضباط: يا عرابي باشا، ماذا ستفعل اليوم؟

فقال: افعلوا ما تريدون!

فقالوا جميعا: كيف؟

قال: لا آمركم ولا أنهاكم!

ثم صمت طويلاً وهو يفكر والناس يتزاحمون، ويهتفون عرابي... عرابي.... كلنا سلاح... كلنا جهاد ومقاومة.... قاتل.... قاتل.... نحن معك... أولادنا فداك.

لكنه وقف فيهم خطيبًا وقال: أيها المصريون، نحن لم يهزمنا الأعداء، بل الخونة لقد بث الخديو بين الناس سمومًا من الناس، الجيش المصري لم يُهزم، ومصر لا تهزم، الكنانة لا تهزم نحن لم نحارب لكننا غرر بنا كثيرًا والخوض في معارك جديدة سيكبدنا خسائر كثيرة!

ثم صمت ولم يستطع الحديث فوق ذلك، فأخذ الناس يقولون: وهل نبكي الجند الشهداء؟ ونولول كالنساء؟

فلم يستطع الرد عليهم، وأخذ طريقه إلى بيته وسط كوكبة من الضباط والجند!

أخذ حسن يتبعه مع الحشود الحاشدة، حتى أخذ يقترب من بيته، فعمد الجند إلى تفريق الناس، وتشتيتهم لكن حسنًا نادى عرابي باشا فلما سمع صوته تذكره، فاستدار إليه وأخذه ودخل به إلى حجرة خاصة وقال له: أنا أعرف أن الجيش قد هزم أمام الإنجليز!

فقال حسن: وماذا إذن؟ هل سيعودون؟

فابتسم ابتسارا وقال: لا... بل سيحتلون مصر والله أعلم ماذا يحمل الغد، لكن اسمع يا حسن، أنا لا أستطيع لقاء سيدتك، وأريدك أن تنصت إليّ جيدًا، لم أستطع إحضار مهرها، و لا أجسر على رؤيتها لكني لم أهزم وستعرف ذلك فيما بعد لا أخشى على نفسي قد يعدمونني أو ينفونني خارج مصر، لكن لا يهمني إلا الكنانة، قل لها إن عرابي جدّ في الدفاع عن مصر، لكن يوم ١٢ سبتمبر عند الفجر سمعت ضرب مدافع وبنادق بشدة، ولم يكن هناك قتال، فأخذ الرعب من الجند عندنا كل مأخذ فتفرقوا فرارًا... فذهبت إلى القنطرة التي على الترعة هناك لأمنع العساكر من الفرار، وصرت أناديهم وأحرضهم على الرجوع والثبات والصبر

علـى القتـال العـدو ، وأذكـرهم بالشـرف الإسـلامي، والعـرض والـوطن، ولم أغـادر كلمـة مـن شـأنها تنشيط الأجسـام الميتـة وبـث الشجاعة فـي قلب كل رعديد جبان فما كان من سميع ولا بصير، بل ألقـوا بأنفسهم فـي الترعـة وسـبحوا إلى البـر الغربـي، ذهبـت إلى بلبيس لجمع المنهـزمين هنـاك، واتخـاذ مركـز آخـر لمنـع العـدو مـن الوصول إلى القاهـرة.... فلما وصلت بلبيس وجدت علي باشا الروبـي سبقني إليها ، فسألته عما دهاهم فلم يزد على قوله: إنه الخـزلان - وكانـت علـى أثرنـا فرقـة مـن خيالـة العـدو فهجمـوا علينـا فأرخينـا للخيـل أعنتهـا حتـى وصلنا محطـة أنشـاص فوجـدنا هنـاك قطـارًا فركبناه، وأسرعنا إلى القاهرة.

أحس حسن بالمرارة في جوف عرابي فقال: سيدتي تدرك أنك تحب مصر، وكنت تدافع، ولست جبانًا ، والحروب بها المهزوم والفائز!

قال عرابي باشا : ليس هكذا ، قلت لك لم يكن الأمر قتالاً ولا حروب لكن الخونة أفسدوا علينا النصر.

فتـذكر حسـن شيئًا فقـال: ألم أقل لكم إن رجـلاً اسمـه بـالمر رأيته مع سلطان باشا يتفقان على الخيانة؟!

فقال عرابي باشا : لكن الحمد لله قد قتلنا بـالمر هـذا ، وعسـانا نكون قد ظفرنا بسلطان الخائن! قل لسيدتك إنني سأعرض على الخـديو وقـف الحـرب، لأن الإنجليـز يحاربوننـا باسمـه، ونـذعن لـه ليفعل بنا ما تمليه عليه خسته ونذالته، لكن ذلك خير من تخريب البلاد ، وقتل العباد!

فبكـى حسـن، وتـأثر عرابـي باشـا فـدخلت زوجتـه وهـي تقـول: أحمد الله يا باشا ، أنك عُدت سالمًا لم يصبك سوء!

نظر إليها طويلاً ثم قال: نعم الحمد لله.... فليس لنا سواه!

فطن حسن لسوء موقفه، فأخذ طريقة نحو الخارج، فناداه عرابي باشا قائلاً: قل لسيدتك يا حسن إن أنا استطعت زيارتها سأفعل، لكن إن عجلوا بي قبل ذلك فلا تقنط؛ فيومًا سيحيق بالظالمين سوء مكرهم فتتهدت المرأة وهي تنظر إلى حسن نظرة عزيز منتصر، فخرج حسن كاللمح إلى سيدته، فلما دخل إليها وجد العرق بحيرة تسبح فيها فخشى الحديث، إليها عما كان في يومه، وفكر أن يزّيفه أو يموهه، وأخذ يمسح عنها العرق، ويصب عليها الماء، ويقول: كأنكِ تغلين يا سيدتي، ماذا بكِ ؟ فلم تجب.

فقال: جئتكِ من عند عرابي باشا برسالة طويلة، هل أتلوها عليكِ؟

فصمتت وهي تحدق نحو السقف، وهو يقول لها: هل أتلوها عليكِ... إنها هامة.... هامة جدًا.

فقالت: لا..... عليَّ أن أنام..... لكن النوم لا يأتيني! هل عاد عرابي منتصرًا ومعه مهري؟

فلاذ بالصمت.

فقالت: هل هُزم؟

فقال: هو يحبكِ!

فعادت إلى نظراتها البعيدة، وأخذت تغفو ثم تستيقظ كأنها في حمى، حتى قالت: لابد أن أموت الآن، أخيرًا.....لابد أن أموت، حتى لو مت راقدة.....لا يهم..... يجب عليّ أن أموت.

فقال حسن: وهؤلاء الخونة يعيشون في أرضكِ وينهبون الخيرات ويذهبون بها للخارج يا سيدتي؟

فقالت: خيراتي لغير أهلي، وبعض أهلي يخونون، فماذا أفعل؟

قال: تلدين رجالا آخرين يأخذون حقكِ منهم ويطردونهم!

فقالت: نعم.... لابد أن ألد رجالاً عظماء ينشدون تحقيق رغباتي، أليست مطالبي عادلة يا حسن!

قال: بلى يا سيدتي، لكن تحتاج إلى رجال عظماء!

فقالت: لابد قبل الموت أن ألد رجالاً عظماء!

فقال: وهل يموت من يلد رجالا عظماء؟

فقالت: لست في حاجة إلى شئ سوى الرجال، سوى الرجال.... سوى الرجال.

علاء الدين سعد جاويش

من قائمة الإصدارات

رواية - قصة

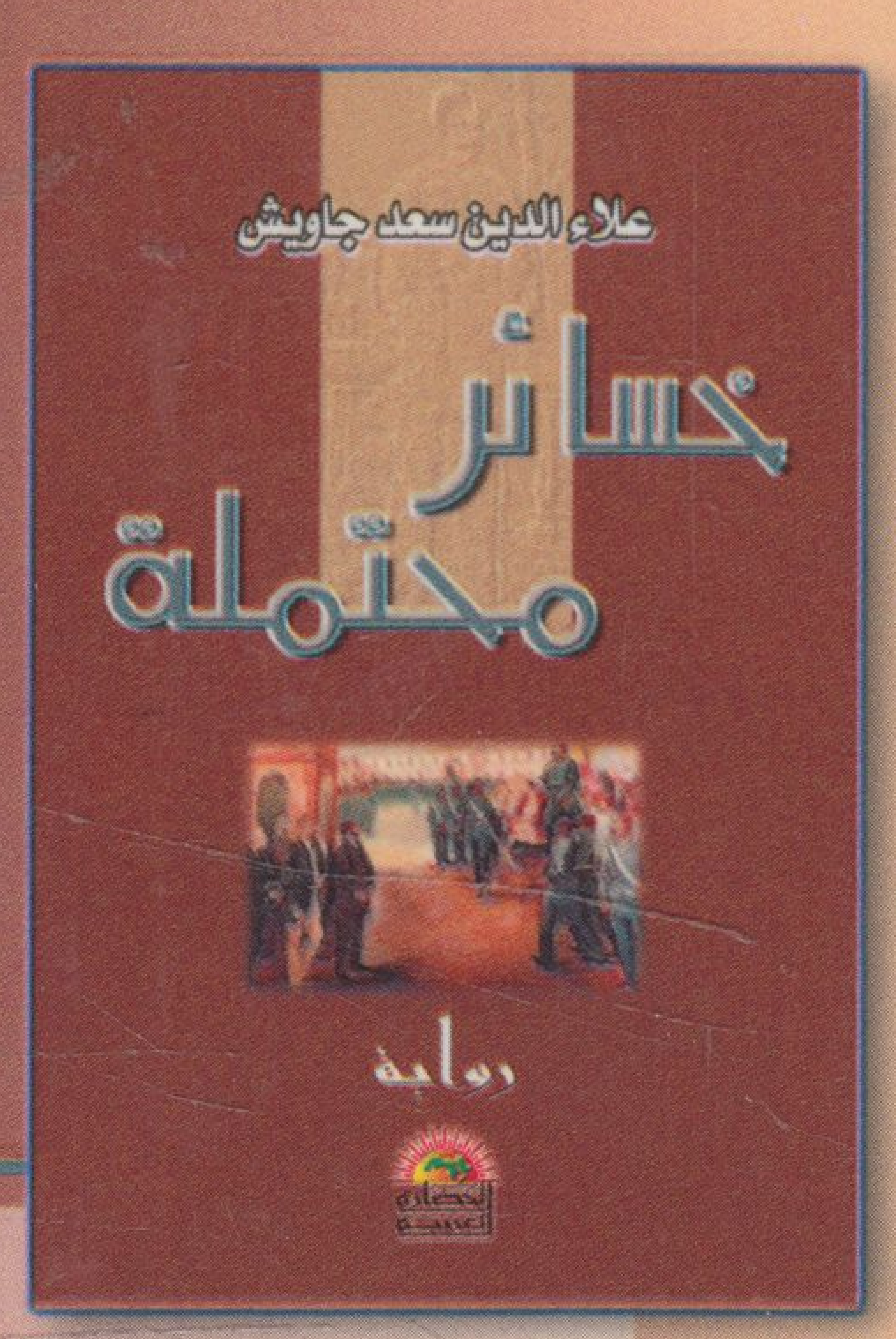
ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
وراء السراب قليلا	إبراهيم درغوثى
حمدان طليقًا	أحمد عمر شاهين
ملاعيب الأكابر	أحمد الشيخ
وقائع غرق السفينة	إدريس على
طريق النسر	إدوار الخراط
صخور السماء	إدوار الخراط
صيد الحضرمية	أمير تاج السر
مطرية الغروب	جمال الغيطانى
تكوينات الدم والتراب/الخروج عن النص	د. جمال التلاوى
رفيف الترائب	خالد الأنشاصى
كيد النسا	خيرى عبد الجواد
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
آخر ما قاله النهر	عز الدين الأسوانى
إينارو	د. على فهمى خشيم
ولا يزال المعطف معلقًا	على مصطفى المصراتى
جنية الشفق (قصص شاعرية قصيرة جدًا)	د. فاروق أوهان
تاء مربوطة	فاطمة يوسف العلى
الحمامة البرية	فؤاد قنديل
فنار الأخوين	فوزية مهران
هالة النور	محمد العشرى
تحت المجهر(رواية من الخيال العلمى)	نهاد شريف
أنت وحدك السماء	هيام عبد الهادى
امرأة بين الرجال	وفية خيري

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية؛ رواية.. قصة.. دراسات ونقد وكتب متنوعة: سياسية، قومية، دينية، معارف عامة، تراث، أطفال.

خدمات إعلامية وثقافية

الآراء الواردة فى الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز





سوف يظل سعي الإنسان الدائب نحو امتلاك القوة والهيمنة هو محفزه الأكبر في الحياة. وتدلنا كافة الاستقراءات للتاريخ أن الحياة كانت - وستظل - صراعًا كبيرًا بين قوى متفاوتة، ولما كانت بعض القوى مرتبطة بنوايا خبيثة ودنيئة كان ذلك سببًا مباشرًا في تردي إنسانية الإنسان.

لذا وجب علينا الاحتياط من هذا وذاك والتماس العزة في القوة، بعد أن كانت - قديماً حسب الأديان - تُلتمس في القيم والمبادئ والصدق والاتساق الإنساني، و هذا ما يُفرض علينا لمواجهة قوى البغي والضلال والعدوان، و لكن أليس اللهاث خلف القوة يقودنا إلى تماثل الغابة ؟!

تكشف هذه الرواية عن اصطراع قوى ارتبطت ب[illegible]
خبيثة تواطأت جميعًا للإيقاع بالمثالية وتمكنت من هزيم[illegible]
و لكن تبقى الآمال معقودة على ما يتمخض عنه المست[illegible]
من إفراز جيل جديد يستحضر القوى ويستهجن نوايا ال[illegible]
والخبث، ولكنا نُفجع حين ندرك أن قوى السيطرة والت[illegible]
والإذلال قد غيرت - هي الأخرى - مناهجها وطريقتها [illegible]
زالت تسيطر وتهيمن، فمتى نستطيع مواكبتها وتخطيها وقياد[illegible]
أليس الأمر فقط يحتاج إلى رجال؟!

علاء الدين جاويش

